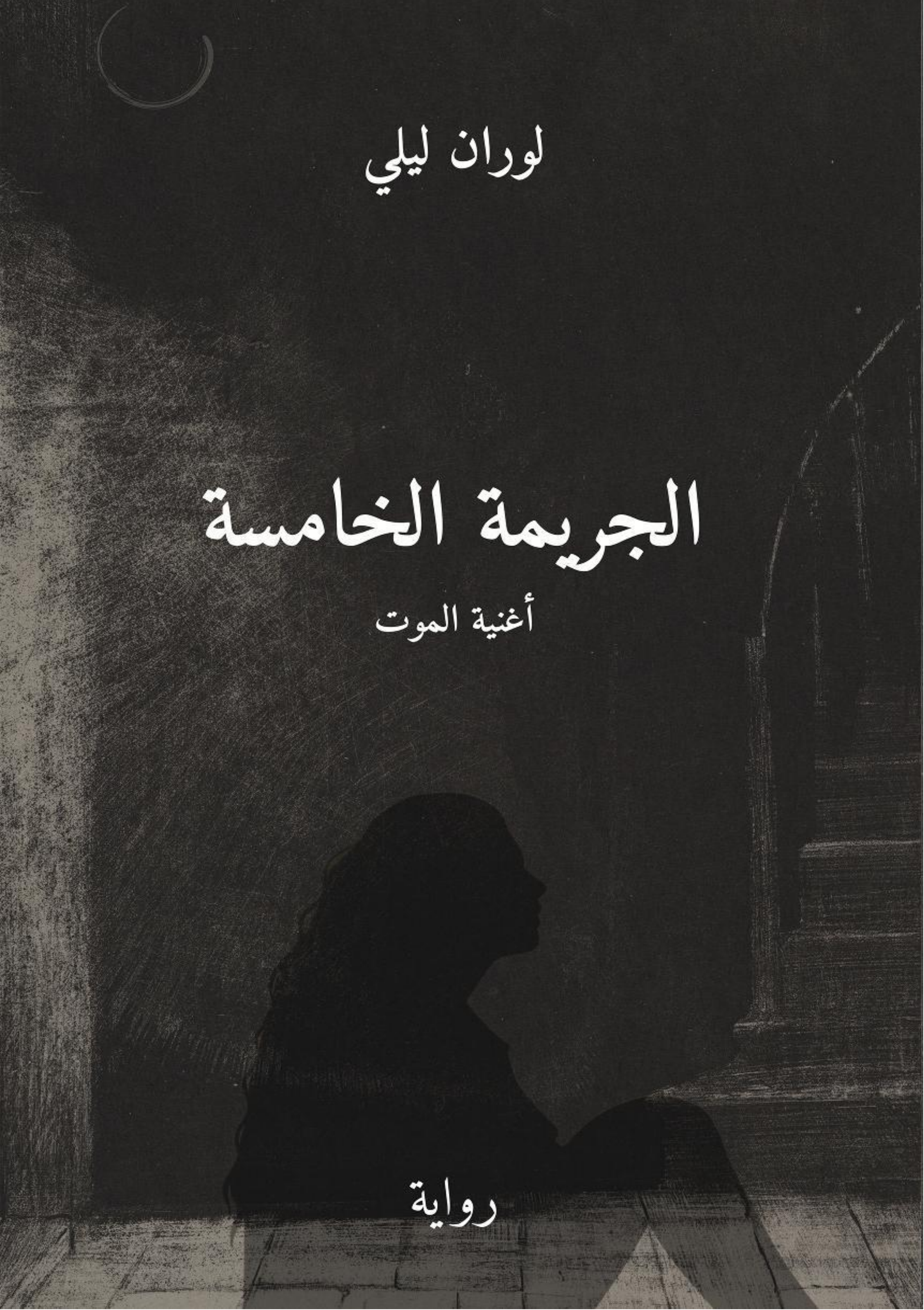


لوران ليلي

الجريمة الخامسة

أغنية الموت

رواية

الجريمة الخامسة

– أُغنية الموت –

لوران ليلي

رواية الجريمة الخامسة

الكاتب: لوران لَيلي

الناشر: دار ميزوبوتاميا للنشر

الطبعة الأولى: سوريا - دمشق 2026

رقم الإيداع: 17265 / 2025 م

الترقيم الدولي: 978-9933-683-47-7

تصميم فني: عبد المجيد خلف

الغلاف: لوران لَيلي

الإشراف العام: جوان سلو

رقم الهاتف: 963987037994+

البريد الإلكتروني: dmezp2025@gmail.com

ISBN 978-9933-683-46-7

9 789933 683467

MEZOPOTAMIA
Publishing House

إلى الرّياح التي استفاقت

من لعنة الإلَه

"نحن لا نرى الأشياء كما هي،

بل نراها كما نحن"

أناييز نين

القضية المُحيّرة – 14 يونيو 1983

الساعة الخامسة صباحاً

في ذلك الطريق التّرابي المتعرّج، الذي شُق بين أضلاع الغابة الكثيفة، تاركاً للأشجار أن تحميه بسيوفها الخشنة والمُثقلة بحبّات الصّنوبر القاسية، كُحرّاسٍ صامتين.

توقفت سيارة أجرة عند نهاية الطريق، أمام منزل خشبيّ وحيد في عُزلة الغابة، وترجّلت منها امرأة مسنة، وقد أثقلها فستانٌ أبيض اللون، مزهرٌ بالورود الخضراء، ووشاحٌ طويل، أهلك أكتافها، وكأنها تجر معها عبء السنين؛ ملامح وجهها، التي كانت يوماً جميلة، خطتها تجاعيد عميقة، وقصّت حياتها الطويلة، كأثرٍ زمنيٍّ لا يُمحى.

كانت تغطي فمها بمنديلٍ قماشيّ، يخفي رعشة أنفاسها الباردة، وفي يدها الأُخرى، تعتصر صورةً قديمة لزوجها المُتوفى، أما عيناها الزرقاوان، اللتان استعارتا لونهما من السماء طواعيةً، كانتا تُشخّصان ذلك المنزل، كأنهما تقرأانِ في جدرانه حكايات انقضى على نفسه.

كان المنزل يتألف من طابقين، تتألق في كل منهما ثلاث نوافذ ضخمة، وتحرسها أعمدة خشبية متينة؛ أمام الباب الخشبي، فناءٌ مزينٌ بطاولة وكراسٍ، وأحواض مُتهالكة ممتلئة بزهورٍ، اتكأت على أنفسها بفعل ذلك الضباب، الذي لفّ المكان، وكأن الزمن قد ترك عليها بصماته الرطبة.

الأشجار الشاهقة التي أحاطت بالمنزل، نسجت مظلة طبيعية من أغصانها، تاركة لأشعة الشمس أن تتسلل من خلالها بخجل، لتلمس الجدران المتجمدة، وتتراقص عليها مع كل نسمة رياح، وكأنها تملأ المكان بحكاياتٍ قديمة، اعتزلت صخب المدينة وضجيج الطرقات. اقتربت من باب المنزل وطرقت عليه بيدها النحيلة بكامل قوتها، استفاق ليفار في الداخل على تلك الطرقات المُتزايدة، لينظُر إلى زوجته هانا، التي كانت تجلس بعينين زرقاوين، يملؤهُما قلقٌ خافت. كان الخوف يستحوذ عليها باستمرار، تخشى أن تحل عليهم مصيبة، بسبب عمل زوجها كمُحققٍ في الشرطة المحلية.

كانت المدينة تعيش في هدوءٍ شبه مطلق، بالكاد تعرف الجرائم طريقها إليها، وعدد الحوادث المسجلة، لم يكن يتجاوز جريمتين في السنة، ومعظم تلك الحوادث، كانت تقتصر على سرقاتٍ بسيطة، أما حالات القتل، فكانت نادرة الحدوث.

نظرت هانا إلى الساعة المعلقة من رقبتها، وبينما كانت صوت الطرقات تزداد، قالت بصوتٍ مُتهدج:

- من قد يكون في هذا الوقت؟ الساعة خامسة صباحاً!

أبعد ليفار اللحاف عنه، وهمّ بتغيير ملابسه، لينزل إلى الطابق السفلي ويفتح الباب.

أوقفته هانا، وقد اشتدت نظرات الخوف في عينيها:

- لا تفتح الباب، لدينا طفلةٌ صغيرة، قلت لك مراراً أن تترك هذا العمل، أشعر دائماً بأن هناك كارثةً ما ستحدث.

ابتسم ليفار وهو يكافح نُعاسه:

- لا تقلقي، من يطرق الباب بهذا الشكل، لا بدّ أن لديه أمراً مهماً، ثم أن مدينتنا هادئة ولا تحدث فيها الجرائم عادةً، ونعرف كل سُكانها.

نزل بسرعة وفتح الباب، ليجد أمامه سيدة كبيرة في العمر، ترتجف من البرد.

كان وجهها شاحباً وكأن الليالي قد مرت عليها ثقيلة دون رحمة؛ أسرع ليفار بإدخالها إلى المنزل، وجعلها تجلس على كرسيٍّ خشبي بجانب الباب.

تقدمت هانا وعلامات الاستغراب ترتسم على محياها، محولةً أفكار الخوف في مخيلتها إلى فضولٍ غامر؛ ما إن هدأت السيدة حتى انهمرت دموعها بصمتٍ مُفجع، وكأن تلك الدموع انتظرت طريقاً للخروج إلى العلن.

اقتربت منها هانا، وأمسكت يديها بلطف:

- لا تقلقي، سيكون كل شيءٍ على ما يرام.

نظرت هانا إلى ليفار الذي كان في حيرةٍ وذهول، يتساءلان دون كلماتٍ عن هوية السيدة.

- سأجلب بعض الماء.

أمسكت بيده، وكأن قبضتها تمسك بحياته المتبقية:

- أرجوك... انتقم لي...

توقف في مكانه للحظات:

- ما هي مشكلتك؟

دون أن تنطق بكلمة، قدمت له تلك الصورة التي كانت في يدها. ساعدتها هانا على النهوض وأخذتها إلى غُرفة الضيوف الواسعة، وهمست في أُذن ليفار "ابق معها، سأجلب الماء بنفسي وأعد القهوة". جلس أمامها وبدأ يتأمل تلك الصورة المُجعّدة، التي تشوهت ملامحها بين يديها؛ كانت الصورة لرجُلٍ نحيل، يرتدي نظارةً طبية، وله لحية بيضاء خفيفة:

- لقد رأيت هذا الرجُل من قبل، أهذا زوجكِ؟

أجابت بصوتٍ مُختنق:

- نعم، لكنه لم يعد زوجي الآن...

- هل حدث له مكروه؟

بصوتٍ واهِن، وهي تُصارع الدموع:

- قُتِل منذ ثلاثة أشهر، وهو في طريقه إلى المنزل.

سرعان ما تذكر القضية:

- لويز! قُتِل بثلاث طعنات في رقبته، على الطريق المؤدي إلى مركز الحدود.

انفعلت السيدة فجأةً:

- طعنوا رقبته... شوهوا رقبته الجميلة...

أتت هانا بعدما سمعت الحديث وهي تحمل فناجين القهوة، التي ارتجفت من ثقل الأسى، المُلقى على أكتاف السيدة:

- يا إلهي، كيف يمكن لإنسانٍ، أن يقتُل إنساناً آخر بهذه الوحشية؟

رفع ليفار عينيه نحوها:

- أحياناً، لا يكون البشر مجرد بشرٍ، بل شياطين تتلبس جلد الإنسان، وتخفي بداخلها شراً متوحشاً دون أن يلاحظ.

أخذ نفساً عميقاً وأكمل:

- من قتل بهذه الطريقة أراد أن يتأكد من موته على الفور، ربما لأن لويز كان يعرف القاتل جيداً، لكن زميلي نوح هو من يتولى القضايا والمشاكل المتعلقة بالقرى القريبة من المدينة، لماذا لم تلجئي إليه؟

ابتسمت بسخرية، وكأنها تتحدث عن خيبةٍ قديمة:

- زميلك لم يُكلف نفسه عناء التفكير، بأنه قُتل من رقبته، لمعرفته المُسبقة بالقاتل.

حرك يديه، وكأنه لا يستطيع فعل شيء، اقتربت السيدة، وجثت أمامه منحنية الرأس:

- أتوسل إليك... تول القضية، وانتقم لي...

- ماذا تفعلين؟

نظرت إليه بنظرةٍ مكسورة، بينما كانت هانا تساعدها على الجلوس مجدداً، وكأن جسدها يقاوم الانهيار من ثقل الماضي.

تنهدت عميقاً وبنبرةٍ مُثقلة:

- كان لويز يعشق الصحف، وكانت كلماتها المطبوعة تأخذه بعيداً عن هموم الحياة، وكأنها ملاذه الوحيد؛ أتذكر جيداً تلك اللحظة، عندما ظهرت صورتك على الصفحة الأولى قبل أربع سنوات، بعد أن حللت

قضية رايدن، وأظهرت براعتك وذكاءك في كشف الحقائق، أخبرني لويز تفاصيل القضية وكأنه يعيشها معك.

اهتز صوتها قليلاً وهي تسترجع الذكريات:

ـ كان معجباً بك، وبقدرتك على حل القضايا، مازحته يومها وقلت له "بما أنك معجب بهذا المُحقق، إذا أصابك مكروه، سأخبره بأن يتولى قضيتك" ضحك، وقال لي مازحاً "إذا حدث لي شيء، ستكونين أنتِ وراءه".

قبل أربع سنوات، في عام 1976، وقعت جريمة في منزل ثلاثة إخوة، كانوا يعيشون وحدهم في وسط تلك الغابات الكثيفة، وكان منزلهم يقع في منتصف الطريق الوحيد الذي يفصل بين قرية سدنار الواقعة في الجنوب الشرقيّ لمدينة آماريا، ومدرسة آماريس التي كانت تبعد مسافة نصف ساعة سيراً على الأقدام.

لم يكن هناك طريقٌ آخر يؤدي إلى المدينة إلا عبرها، وكانت الرحلة تستغرق حوالي نصف ساعة بالسيارة؛ الإخوة ورثوا المنزل عن والدهم، الذي قرر الابتعاد عن ضجيج المدينة ليعيش في هدوءٍ مع زوجته المريضة، التي كانت تعاني من مشاكل في التنفس، ولم تعد تتحمّل هواء المدينة المُلوث، فقد اشترى ذلك الأرض من الحكومة

المحلية، وبدأ بحذف جزءٍ من تلك الغابة، ليبني منزله في وسطها. كان المنزل يتألف من طابقٍ واحد وأمامه ساحةٌ كبيرة فارغة، أما خلفه وبجانبه كانت تلك الغابات مازالت مُسيطرةً على المساحات المتبقية.

بعد وفاتهما، قرر الأخ الأكبر كايل، والمُعيل الوحيد لأخوته، أن يفتح مشروعاً صغيراً في ساحة المنزل من الجهة اليُسرى، بنى مستودعاً صغيرة للأشجار، ومحلاً صغيراً يحتوي على أدوات النّجارة.

كان يعمل في النحت على الإسمنت والصخور منذ صغره، ويمتلك مهارةً عالية، إلا أن تلك المهنة لم تعجبه، بسبب الجهد الكبير التي تتطلبه.

بعد فترةٍ من الزمن، قرر الابتعاد عن النحت، وبدأ بالعمل في النجارة، ومع الوقت أصبح ماهراً فيها، وافتتح مشروعه الصغير في ساحة المنزل، وصار يصنع تماثيل كبيرة وصغيرة الحجم بأشكالٍ غريبة، ويبيعها للمدن المجاورة والعاصمة.

كانت هذه التماثيل تزيّن منازل الأثرياء، والمسارح الفنية، والمعارض الثقافية، وكأن تلك القطع الفنية تمثل جزءاً من روحه. غريف الأخ المتوسط بترتيب العائلة، كان يختلف عن أخيه الأكبر، فقد فشل في دراسته، وقرر الابتعاد عن الكُتب والتعليم، وعندما حاول تعلم النجارة

مثل أخيه، اكتشف أن صُنع التماثيل، يتطلب ذوقاً وصبراً، وهما صفتان، لم يكن يمتلكهما.

كان حاد الطباع، سريع الغضب، ومتسرعاً في كل شيء، انتهى به المطاف في النهاية، بالعمل في مسلخ الأغنام القريب من قرية سدنار؛ لم يكن شغوفاً بعمله، لكنه وجد متعته في هواية الصيد في الغابة. كان يستمتع بقتل الحيوانات البرية ببندقية الصيد، وكأنه في معركةٍ حقيقية، ورغم أنه كان فاشلاً في التصويب، إلا أنه كان يصيد غالباً العصافير الصغيرة، ونادراً ما يصيد الغزلان في تلك الغابة، التي كانت مليئةً بها.

لم يكن كايل يكترث لما يفعله غريف، فقد كان يعلم أن معارضته له، ستشعل صراعاً بينهما، بسبب همجية تصرفاته، أما الأخ الأصغر كولن، فكان على العكس تماماً، يعارض غريف بشدة، وخصوصاً عندما كان يعود إلى المنزل، حاملاً معه جثث الحيوانات البرّية التي قتلها ببرودةٍ في تلك الغابة.

كان كولن يرى في هذه الغابة ملاذاً آمناً للكائنات التي تعيش فيها، وغريف تهديداً لهذا السلام، ورغم الضرب المستمر، الذي كان يتلقاه

منه، إلا أنه لم يتوقف عن مُعارضته، وكان يواجهه بكل ما يملكه من الجرأة.

كان يعيش في شقة سكنية في العاصمة مع صديقه الوحيد كنان، الذي كان يدرس معه في جامعة الآداب، قسم اللغة الفرنسية، ولم يكن يزور المنزل، إلا في العطل الرسمية، فالعاصمة كانت تبعد عن منزله ومدينة آماريا حوالي خمس ساعاتٍ بالقطار.

كان شخصاً خلوقاً ومهذباً، ولديه ذوق أدبي رفيع المستوى في كتابة القصص القصيرة، فقد شارك في عدة مسابقات أدبية، وفاز بإحداها، عن قصةٍ تروي حكاية فتاة ضاعت في الغابة، ليجدها عجوز ويعتني بها، وعندما كبرت بعد عشر سنوات، اكتشفت أن ابنة ذلك العجوز قد طردته من منزلها بسبب الفقر الشديد، ليعيش وحيداً في تلك الغابة، يقتات على الأوراق، ونادراً ما يصطاد الأرانب الصغيرة بسبب كبر سنه، وبعدما تم العثور عليهما من قبل الشرطة، اكتشفت ايضاً، أن ابنته في الحقيقة هي والدتها.

هذه القصة الحزينة نالت شهرةً واسعة، وفازت في مركز الأول في المسابقة، حتى أن صحيفة آساميا المعروفة في العاصمة نشرتها في صفحاتها الأولى. كان يطمح أن يصبح كاتباً كبيراً في المستقبل، لكن

القدر كان له رأيٌ آخر، فقد أحرقت النيران منزله، وغيرت مسار حياته إلى الأبد.

في مساء يوم الجمعة، تفاجأ سُكان القرية بغيمةٍ ضخمة وداكنة تتصاعد من الأرض نحو السماء على غير المعتاد، من وسط تلك الأشجار دون توقف. هرع الجميع نحو المنزل، ليجدوه يشتعل من كل الجوانب، رغم مُحاولات أهل القرية لإخماد الحريق، إلا أن النيران قد التهمت كل شيءٍ بالفعل.

وصلت الشرطة المحلية بقيادة نوح، الذي كان يتولى القضايا في المناطق المحيطة بمدينة آماريا، ودخل نحو محل النجارة الصغير، الذي بناه كايل في ساحة المنزل، ليجد بداخله ثلاث جثث؛ كانت إحداها في مقدمة المحل، والأخرى قرب مستودع الحطب الصغير، أما الجثة الثالثة فكانت مستندةً على الحائط، وكأنها كانت تستغيث وتحاول النهوض بدون جدوى.

في اليوم التالي، كانت الأعين تتابع تفاصيل تلك الجريمة الوحشية بذهولٍ ودهشة، وضجّت الصحف بالقضية، منها صحيفة آساميا الشهيرة في كافة أنحاء البلاد. حاول نوح بكل طاقته حل تلك القضية، التي كانت من أصعب القضايا في مسيرته المهنية وفي تلك القرية،

التي اعتاد أهلها النوم بطمأنينة، دون أن تتسلل إليهم أصداء الجرائم، فقد كانت هذه الحادثة أشبه باختراقٍ مُرعب لعالمهم الصامت. مع ضغط الوقت والمطالب المُلحة، أغلق نوح ملف الجثث المُحترقة، بعد أن اعتبرها تعود للإخوة الثلاثة، دون أن يتعمّق في التفاصيل الدقيقة التي قد تخفي وراءها سراً آخر.

فتح التحقيق، وبدأ بسؤال سُكان القرية، والقرى المُجاورة، إذا كانوا قد رأوا شيئاً، أو يملكون أيّ معلوماتٍ توصله إلى القاتل، ولكن دون جدوى.

في اليوم الثالث، وبينما كان نوح يحاول حل القضية في مكتبه الشخصي، تلقى اتصالاً مُفاجئاً من المسؤولين في العاصمة، يطلبون منه تسليم القضية التي أثارت اهتمام البلاد بأكملها إلى ليفار، لأنه كان بارعاً في عمله، وذو ذكاءٍ حاد، وكان مشهوراً بذلك في دفعته، عندما كان شاباً مُلتحقاً بقسم التحقيقات.

رفض ليفار في البداية استلام القضية، حفاظاً على شرف المهنة ولأنه لم يكن مُختصاً بقضايا القرى المجاورة للمدينة، إلا أنه استسلم تحت ضغط المسؤولين في النهاية ووافق على توليها.

بدأ ليفار بالعمل، وطلب إخراج الجثث، التي كانت محفوظةً في براد الموتى، وأمر الطبيب الشرعي بفحص الجثث مرةً أخرى، وبتمعُّنٍ أكبر، لأنها لم تفحص بدقةٍ عالية، واعتبرت إنها تعود للإخوة الثلاثة بناءً على تقرير نوح.

قام الطبيب بفحص الجثث، وأخبره بأن للجثة الأولى فتحةً صغيرة في الجُمجمة بسبب طلقة نارية من مُسدس، والثانية تحمل نفس الفتحة في قفصها الصدري، أما الثالثة، فكانت لديها ثقبٌ كبير نتيجة لطلقةٍ نارية من بُندقية الصيد، دخلت من ظهر الضحية وخرجت من قفصه الصدري.

استغرب ليفار من هذا التحليل "من يأتي ليقتُل الإخوة باستخدام سلاحين مُختلفين، أحدهما مُسدس صغير، والآخر بندقية؟"، وبدأ يشك في أن الجثة الثالثة، قد تكون لشخصٍ آخر، ونظراً لقلة الإمكانيات المخبرية والعلمية، لم يستطع الطبيب تحديد عمر العظام المتبقية، واكتفى بالتعليق، على إنها تعود لرجُلٍ كبير في السن، بسبب حجم الحوض الصغير وانحناء عظام ظهره، الذي يشير إلى تقدمه في العمر.

لم يرض ليفار بهذا التحليل، وقرر التعمُّق أكثر في ملفات الشرطة المحلية، حتى قرأ بلاغين، الأول عن طفلٍ مفقود من مدرسة آماريس صباح يوم الحادثة، والذي تم العثور عليه لاحقاً في المساء، والثاني من كنان، الذي أبلغ عن اختفاء والده، طبيب الأعشاب الشهير في المدينة؛ رجُلٍ في الخمسينيات من عمره، يتجول دائماً في الغابة، لجمع الأعشاب النادرة، وتحويلها إلى عقاقير طبية. استغرب من هذا البلاغ، خاصةً أن الطبيب يعرف الغابة جيداً، فمن المستبعد أن يضيع فيها، وزاد شكه، بعد أن تم سحب البلاغ في اليوم التالي. قرر زيارة كنان في منزله، وعندما وصل، لاحظ قلقه فوراً، وبدأ بسؤاله بشكلٍ مُباشر، وبدون مقدمات "هل والدك في المنزل؟" ارتبك قليلاً، وردَّ "والدي زائرٌ عند عمي في العاصمة، ولن يعود إلا بعد شهرٍ من الآن"، شك في صحة كلامه وقال "حسناً، أعطني عنوان عمك في العاصمة، أو اسمه على الأقل"، لينفجر كنان غضباً، ويبدأ بالصُراخ "ما دخلكُم في أبي؟ لِمَ تسألون كل هذه الأسئلة؟ اخرجوا من منزلي!"، أمر ليفار الشرطيّين، اللذين كانا يرافقانه بالقبض عليه. استمر التحقيق لمدة يومين، في داخل تلك الغرفة المُظلمة والموحشة في مركز الشرطة،

حتى اعترف كنان في النهاية " غريف قتل والدي بالخطأ، وأنا قتلت غريف وكايل".

في مساء يوم الخميس قبل يومٍ من الحادثة، خرج والده، الطبيب رايدن، كعادته إلى الغابة لجمع الأعشاب، وبينما كان ينحني ليلتقط إحداها، أطلق غريف عليه النار من بندقيته أثناء الصيد بدون قصد.

كان غريف يصطاد بطريقةٍ همجية، وبدون انتباه، أصاب الطبيب في ظهره، مما أدى إلى وفاته على الفور، وحمل الجثة سريعاً إلى كايل، وأخبره بما حدث، لينصدم بشدة، ويبدأ بلومه، حتى أنه تعارك معه، لكنه قرر في النهاية، مساعدة أخيه بأي وسيلة.

كان كايل قد صمم توابيت فرعونية، كجزءٍ من مشروعه الجديد، وقرر وضع جثة الطبيب في أحدها لإخفائها، وفي تلك اللحظات، وصل كولن إلى المنزل، وتجمّد في مكانه.

أُصيب بالذعر، وبدأ يصرخ ويواجه أخويه، واحتدم الصراع، ليهرب في النهاية إلى صديقه كنان ويخبره بما حدث، ثم أعتذر منه، وسافر إلى العاصمة بدون عودة.

قرر كنان الانتقام لمقتل والده، وتوجه إلى منزل الإخوة، وبينما كانا يضعان الجثة في إحدى التوابيت، قَتل كليهُما، ثم أشعل النار في المنزل، ليمحو جميع الأدلة.

ذاع صيت ليفار بعد تلك القضية، وأصبح اسمه يتصدر كل الصحف المحلية والوطنية، كانت هذه الشهرة هو السبب الوحيد، الذي دفع تلك السيدة لأن تلجأ إليه، ويحقق في مقتل زوجها، فهي كانت تعلم جيداً بأنه الوحيد، الذي سيتمكن من حل القضية، وأن نوح لن يتعمّق في الحقيقة مثله. قال لها بهدوء:

- ليست من صلاحياتي أن أتدخل في تلك القضية، لقد أُغلقت ضدّ مجهول، يجب أن تحضري مُذكرةً من المحكمة لإعادة فتح التحقيق، ويجب أن تطلبي رسمياً أن أتولى التحقيق، دون ذلك، لا أستطيع فعل شيء.

قامت بجسدٍ مُنهك، واتجهت صوب الباب:

- لو تعلم يا لويز، قضيت حياتك بين الأوراق، والآن أصبحت جثتك مجرد ورقةٍ منهم.

غمر الأسى قلب هانا وهي تتابع مغادرتها، اقتربت من ليفار وهمست في أُذنه:

- ألا تستطيع فعل شيء؟

لحق ليفار بها، وقال بنبرةٍ مُطمئنة:

- سأتواصل مع المحكمة من أجلك لفتح التحقيق من جديد، لا تقلقي.

أعاد ليفار الصورة إليها عند الباب الخارجي، نظرت إلى الصورة بعينين مُشبعتين بالحزن، وكأنها تتحدث إليها دون أن تنبس بكلمة، ومضت في طريقها.

عاد إلى غرفته، وبدأ يبدل ملابسه وهو غارقٌ في بحرٍ من الأفكار، وكأن روحه تعلقت بين حبال تلك القضية. اقتحمت هانا صمته:

- إلى أين ستذهب في هذا الوقت وأنت في إجازة؟ الساعة لم تبلغ السادسة بعد.

- يجب أن أصل إلى المركز وأقرأ ملف لويز كاملاً، واتصل بالمحكمة في السابعة، قبل أن ينشغل قاضي التحقيق.

- شعرت بالأسى عليها، لا أستطيع أن أتخيل، ما تحملته تلك السيدة من معاناة، حاول أن تفعل ما تستطيع، وأرجوك أن تنتبه لنفسك. ابتسم ابتسامةً خفيفة، وتوجه إلى سيارته. قاد حوالي ربع ساعة في ذلك الصباح حتى وصل إلى المركز، لينظر إلى ريان، التي كانت تقف عند المدخل بملامحها الهادئة، وكأنها تُراقب العالم.

كان وجهها الناعم ذو الملامح المحددة، ينعكس عليه ضوء الصباح الباهت، ويزيد من إشراق بشرتها الصافية، أما شعرها الداكن، فقد كان يتسلل كالصوص حول رقبتها، وينساب ذلك الفجر الهادئ، ناعماً ولامعاً، وكأنه يحاول سرقة عطرها.

تفاجأت بوجوده في هذا الوقت المبكر، وخافت من أن يكون هناك ما يستدعي القلق؛ كانت تعتبر ليفار بمثابة والدها الثاني، فقد عاشت حياتها وحيدةً مع ابنها، وكان هو الشخص الوحيد، الذي أبدى اهتماماً حقيقياً بهُما، حتى إنها صارت تناديه "أبي"، وصلت إلى سيارته بخوفٍ واضح:

- هل هناك مشكلة يا أبي؟

ابتسم ليخفف من قلقها:

- الناس عادةً يقولون صباح الخير، هل غيرتم العادة في المركز؟

تلاشى توترها وضحكت:

- لم نغير العادة، ولكنك أنت من غيرتها بظهورك في هذا الوقت المبكر.

دنا منها واحتضنها:

- ليس هناك ما يستدعي القلق، هل تتذكرين قضية لويز الذي قُتل قبل ثلاثة أشهر؟

أومأت برأسها:

- نعم، أتذكرها جيداً، بالأمس كانت زوجته هنا وتشاجرت مع نوح لإغلاق القضية، ولكن لماذا تسال؟

- أتت زوجته إلى منزلي اليوم، وطلبت مني أن أحقق بالقضية.

باستنكارٍ ملحوظ:

هذا ما كان يجب أن يحدث من البداية، نوح لا يهتم بشيء، ولا يستطيع حل أبسط الألغاز، فما بالك بجريمةٍ مُعقدة كهذه؟ لا أفهم كيف تم تعيينه مُحققاً للقرى المجاورة.

- كان الأجدر أن تُعيّني أنتِ في هذا المنصِب، ولكن المال والسلطة يلعبان دورهما دائماً، هلا أحضرت لي فنجان القهوة وملف لويز من فضلك؟

قالت ممازحة:

- الفتاة التي لا تُحضّر القهوة لأبيها، لا تستحق الاحترام.

- بل لا تستحق زوجاً يُحضّر لها القهوة بعد الولادة.

عادت بفناجين القهوة وملف القضية وجلست أمامه؛ تصفح ليفار ملف القضية بتركيزٍ عميق، وبينما كان يقرأ التفاصيل، ظهرت على وجهه علامات الدّهشة، سأل بعينين مثقلتين:

- هل قرأتِ ملف القضية سابقاً؟

- لا، هل هناك شيءٌ مثيرٌ للريبة؟ كل ما أعرفه أن لويز قُتِل على الطريق، دون أن يُكشف عن هوية المُجرم.

- مكتوبٌ هنا هوية المُجرم بالفعل، أنه شخصٌ مُتوفّى منذ ثلاث سنوات، ومع ذلك تمّ تجاهل هذه المعلومة.

توسّعت عيناها:

- ماذا؟ مُتوفّى؟ كيف ذلك؟

رد وهو يقلب صفحات:

- القضية رقم (427) لويز رجُلٌ في الثالثة والستين، يعمل كمسؤولٍ عن الاستيراد والتصدير على الحدود الرسمية، قُتِل طعناً في رقبته في الساعة السادسة صباحاً، بعد انتهاء دوامه المسائي على الطريق الواصلة بين مركز الحدود ومدينة آماريا، تمّ الإبلاغ عن الجريمة بعد خمس دقائق من وقوعها بواسطة رجُلٍ يقود شاحنته نحو الحدود لنقل بضاعته خارج البلاد. بعد وصول الشرطة، وجدوا أداة الجريمة على

بعد خمسة عشر متراً من الجثة، وهي سكين مطبخ طولها 15 سم وعرضها 5 سم، يبدو أن القاتل أسقطها أثناء هروبه بدراجته النارية، ولم يعُد إليها بسبب وجود صاحب الشاحنة.

التحقيقات الجنائية والبصمات قادت إلى شخص يُدعى نوفل وهو مُتوفّى منذ ثلاث سنوات، لديه أخٌ وحيد يدعى نيلان، يعمل في الفرع المحلي، لأحد البنوك في آماريا، وبناءً على هذه المُعطيات ولعدم كفاية الأدلة، تمّ إغلاق القضية ضدّ مجهول.

صمتت ريان لبرهة، تحاول استيعاب التفاصيل:

- هل هذا مكتوبٌ حقاً؟

- نعم، وكأنها قصةً بوليسية مُحيّرة، لكن الغريب في الأمر، أن البصمات التي أُخذت كانت حديثةً حسب المخبر الجنائي.

قلب الصفحات بشكلٍ مُعاكس:

- نوفل، أشعر بأنني سمعت هذا الاسم من قبل، هل تتذكرين شخصاً بهذا الاسم؟

هزّت رأسها بتؤدة:

- هذه المرة الأولى التي أسمع فيها اسم نوفل، ثم إنني لا أقرأ الملفات بالعادة، أخبرني من أين ستبدأ؟

تنهّد وهو ينظر إلى الملف بعينين مُتفحصتين:

- لا أعلم، سأبدأ بمراجعة القضية من بدايتها وحتى إغلاقها، ولكن أولاً، يجب أن أحصل على الموافقة لإعادة فتح التحقيق من العاصمة، يمكنك الذهاب، فلا حاجة لكِ أن تنتظري حتى الثامنة. - لا أحد ينتظرني في البيت، فابني بكل تأكيد ذهب إلى المدرسة، ولا أستطيع النوم، فقد أصابني الأرق منذ أن تغيرت مناوبتي من المساء إلى منتصف الليل.

كانت ريان تعمل كشرطيةً بسيطة، تتناوب على حراسة المركز باستمرار مع زملائها، ولأن المدينة هادئةٌ دائماً، لم تكن تُمانع تلك المناوبة، بل كانت تقضي ساعاتٍ طويلة على طاولتها، تقرأ الروايات دون أن تتدخل في القضايا الجنائية.

عادت إلى روايتها "جغرافيا منتصف الليل"، أما ليفار فكان يتأمل ملف القضية بعناية شديدة، وبينما كان يسير في الغرفة الصغيرة جيئةً وذهاباً، انتبه فجأة إلى ساعة الحائط، التي أشارت عقربها الصغير إلى السابعة، بدأ بكتابة طلبٍ خطي لإعادة فتح القضية واستلامها من جديد، ووقع في أسفل الورقة، ثم وضعها في ظرفٍ وسلمها لريان، لتقوم بإرسالها إلى المحكمة العليا في العاصمة. أجرى اتصالاً بمركز

الاستقبال في المحكمة وطلب تحويل المكالمة إلى قاضي التحقيق، بعد انتظارٍ دام عشر دقائق، رد عليه، ورفض في البداية إعادة فتح التحقيق، لأنها قد أُغلقت بالفعل، لكنه لم يستسلم، وشرح وضع زوجة لويز، وحاول مجدداً إقناعه بفتح التحقيق، وبعد مُحاولاتٍ مضنية ولسمعته الطيبة وقدرته على التعامل مع القضايا المستعصية، وافق القاضي أخيراً بشرط إرسال طلبٍ خطي بذلك.

فرح ليفار بإشفاقه على الزوجة، وبينما كان يغلق الهاتف، دخل نوح إلى المركز بخطواتٍ مُتعجرفة؛ رجُلٌ نحيل القامة، يملك شارباً مُجعّداً يشبه حزمةً من الأسلاك المهملة، أما النظارة الطبية السوداء التي تعلو أنفه، لم تُضف له شيئاً من الأناقة، بقدر ما زادت ملامحه حدة وغرابة. كان كمن عاش حياته في صحراءٍ قاحلة، قست عليه رياحها، ليعود ويحاول عبثاً زراعة نباتاتٍ نادرة في أرضٍ استوائية لا ينتمي إليها. تقدم وكأن الأرض تطوى تحت قدميه، غارقاً في غُروره:

- أراك هنا؟

رد بجدية:

- وأين يجب أن أكون؟

- لا أعلم، ربما في منزلك!

- أتيت هنا لإعادة فتح التحقيق في قضية لويز، التي أغلقتها بدون سبب.

تناول نظارته الطبية ونظر إليه:

- كيف ستفتح قضيةً قد أغلقتها؟ ثم إنني المسؤول الوحيد عن هذه القضية، ولا شأن لك بها.

تجاهل كلماته ومضى نحو الباب برفقة ريان:

- لقد تحدثت بالفعل مع قاضي التحقيق، وتمّ تكليفي بتوليها، فلا يمكن لأحمقٍ مثلك، أن يُدير جريمة قتلٍ بهذا التّعقيد.

اشتعل الغضب في وجه نوح، وبدأ يلاحقه إلى الخارج وهو يتمتم بتذمرٍ، واصفاً إياه بالغطرسة والخداع، ومتوعّداً له بالفشل في حل القضية، ولكنه لم يُعره اهتماماً، وتوجه مباشرةً إلى منزل نيلان، شقيق المُتوفّى نوفل، الذي وجدت بصماته على السكّين.

بعد طرقه للباب عدة مراتٍ، فتح نيلان الباب أخيراً، والنُّعاس يلتهم عينيه ويلعب بشعره المُتناثر:

- من أنت؟ وماذا تريد في هذا الوقت؟

- أنا المُحقق ليفار، وقد تمّ تكليفي من قاضي التحقيق بتولي قضية لويز، هل تتذكرها؟

ارتبك قليلاً:

- ولكن... ألَم تُغلق القضية؟

- هل نكمل حديثنا هُنا أمام الباب؟

اعتذر نيلان عن الموقف، ودعاه إلى غرفة المعيشة وراح يُرتب شعره ويغيّر ملابسه؛ عندما دخل ليفار إلى الغرفة، شدّ انتباهه ترتيب أثاث منزله الكلاسيكي، من التحف المصنوعة يدوياً، وتماثيل صغيرة، وكتبٌ قديمة تخلت عنها حروفها.

أقترب من "الغرامافون" الذي ملأته غبرة النوتات الموسيقية، وراح يتحسس تلك الأسطوانات "لبيتهوفن" و"باخ"، وكأنه يقرأ النوتات بين شقوقها الدائرية، وما أثار انزعاجه، كانت تلك العجلة المُعلقة على الحائط، من دراجةٍ نارية، مُزينة بالأضواء، وكأنها شامةٌ كبيرة في وجهٍ جميل.

جلس على الكرسيّ بالقرب من طاولة الطعام وسأل:

- هل تهوى قيادة الدراجات؟

رد من داخل الغرفة:

- لا، ولكن صديقي أصر أن يضع لمسته الخاصة في منزلي منذ انتقالي.

عاد وهو يحمل زجاجةً من العصير، وقال مبتسماً:

- كنت أسكن في مدينة أيودا قبل انتقالي إلى آماريا، آسف، ليس لديّ قهوة، هل تشرب العصير؟

- لا بأس، فقط اجلس وأخبرني قصتك.

جلس أمامه وبدت عليه علامات التوتر الواضحة، أما ليفار فقد كان ينظر إليه بنظرةٍ ثابتة، مُحاولاً قراءة ملامح وجهه، قال وهو يحاول إظهار الثبات:

- لقد قلت كل شيءٍ بالفعل للسيد نوح.

- أريد سماعك مجدداً، لماذا تبدو متوتراً هكذا؟

- لست متوتراً.. ولكن... مُحقق يطرق باب منزلي في الساعة السابعة والنصف صباحاً، ويبدأ باستجوابي عن قصةٍ لا أُحبّذ تفاصيلها، هذا يكفي لجعل أيّ شخصٍ متوتراً.

مال إلى الأمام قليلاً:

- أنا لا أستجوبك، بل أحاول فقط أن أفهم، كيف وصلت بصمات أخيك المُتوفّى منذ ثلاث سنواتٍ إلى السكين التي أصبحت أداةً للجريمة.

هزّ كتفيه ببرودٍ وقال ساخراً:

- وما أدراني؟ اذهب إلى قبر أخي واسأله.

انزعج منه، ولكنه تمالك نفسه:

- جاوب بدون سخرية، أنا آسف لإزعاجك في هذا الوقت.

قاطعه فجأةً وبنبرةٍ حادة:

- أزعجتني بالفعل!

نهض ليفار من مكانه ببطءٍ واضعاً يديه في جيوبه، وتحدث بلهجةٍ لطيفة، تحمل في طيّاتها نبرة تهديد:

- حسناً، يبدو أنّك متوتر اليوم، إذا شعرت بالرغبة في التحدث، زرني في المركز، وإن لم تأتِ، سأرسل لك باقةً من الزهور وأعتذر لك شخصياً أمام زُملائك في العمل.

مسح جبينه:

- لا، لا داعي لذلك... سأخبرك، فقصتي قصيرة، والداي ماتا في حادث سير بمشفى سينام العام، وانتقلت مع أخي نوفل إلى آماريا قبل أربع سنوات، نشب خلافٌ كبير بيننا وانقطعت أخباره عني تماماً، حتى علمت بوفاته بعد عام.

- هل حضرت جنازته؟ أو رأيته في المشفى؟

- بعد وفاته في المشفى، فتّشوا أغراضه الشخصية ووجدوا رقمي في جيبه، اتصلوا بي وأخبروني أنه قد توفّى، ودفنته في نفس اليوم بمقبرة المدينة.

- هل لديك أيّ فكرةٍ، كيف وصلت بصمات أخيك إلى السكين؟

- أنا مُستغربٌ مثلك وربما أكثر، اعتقدت في البداية أنها مجرد مُزحة سخيفة من أحدهم.

- من سيمزح في جريمة قتل! قُل لي ما كان سبب الخلاف بينكما؟

قال بصوتٍ يغلفه شيءٌ من الحقد:

- كان أخي همجياً بفطرته، وكان يريد تحويل منزلنا القديم إلى إسطبلٍ للخيول، وكنت أرفض هذه الفكرة بشدة.

- هل لديك شيءٌ آخر تود إخباري به؟

نظر بعيداً، وكأنه يريد إنهاء الحديث:

- ليس لديّ المزيد.

- حسناً، شكراً لك على وقتك.

نهض ليخرج، لكنه توقف عند الباب فجأةً:

- قلت إنك من مدينة أيودا صحيح؟ لماذا لهجتك مُختلفةٌ عن أهل المدينة؟

تجمّد نيلان للحظات:

- ربما... ربما لأنني عشت هُنا لمدة أربع سنوات.

لاحظ ليفار توتره مجدداً، ولكنه قررّ عدم الاستعجال، وقال بلهجة مديحٍ مزيفة وهو يهمُّ بالخروج:

- على أيّ حال، هذا ليس موضوعنا الآن، لقد قرأت ملفك بالكامل، وكان خالياً من المشاكل الجنائية، حياتك المهنية والشخصية تبدو مثالية، ولديك أذنٌ موسيقية جيدة، بالمناسبة، اشترِ بعض الأسطوانات "لموزارت" أيضاً لتكتمل المجموعة.

رد بابتسامة متوترة:

- شكراً لك على الملاحظة، إذا احتجت إلى شيءٍ آخر، لا تتردد في سؤالي عنه.

خرج ليفار من المنزل، وركب سيارته، واتّجه مباشرةً إلى منزل ريان.

- جيدٌ أنكِ مُستيقظة، التقيت بنيلان.

- لم أستطع النوم، هل أفادك بشيء؟

- حكايته متناقضة، قال إنه من مدينة أيودا ولهجته لا تتطابق مع لهجة أهل المدينة.

- ربما لأنه عاش هُنا لفترةٍ طويلة.

- اللهجة كالشمس يا ريان، لا يستطيع المرء إخفاؤها بسهولة مهما بذل من جهد.

- هل هناك شيءٌ آخر أثار شكوكك؟

رد بحماسةٍ صامتة:

- نعم، منزله المثالي وتوتره المُبالغ.

- لم أفهم!

- كان منزله مُرتباً ومُنظماً بشكلٍ دقيق، ويملك أسطواناتٌ موسيقية لكبار الموسيقيّين مثل باخ وبيتهوفن، وتحفٌ فنية راقية موزعة في كامل المنزل، كان كل شيءٍ في مكانه الصحيح، إلا تلك العجلة المُعلقة على الحائط لدراجةٍ نارية، هي وحدها من عكّرت صفوة المثالية.

ضحكت ريان:

- عجلةٌ نارية بين أسطوانات "بيتهوفن"؟

- هذا تماماً ما أقصده، أنه من ذلك النوع، الذي يحاول تغيير مظهره الخارجي، ولكنه ينسى ما في داخله.

تناول كأس الماء الموضوع على الطاولة وأكمل:

- حسب وصف سائق الشاحنة، كان القاتل على دراجةٍ نارية، مُزينة ببعض الخردوات.

- هل تقصد أن أخاه ليس مُتوفياً؟

- لا أعلم، سأتحقق بنفسي من موت أخيه.

- كيف؟

- سأحاول الحصول على أمرٍ بفتح قبره.

اتجه بخطواتٍ مُثقلة إلى المركز، واتصل بقاضي التحقيق مجدداً، مُحاولاً إقناعه بإصدار مُذكرة لفتح قبر نوفل، إلا أنه رفض بشدة هذه المرة، ورغم إصراره المُستمر، كان القرار قاطعاً، لا مجال لفتح القبر؛ قرر أن يأخذ الأمور بيده، وأن يفتح القبر بنفسه دون إخبار أحد، انتظر حتى غطى الليل المدينة بظلاله، وخرج بخفةٍ نحو المقبرة.

حمل معه معدات الحفر، وبدأ يحفر بمجرفته، وكأن كل حفنة من التراب، يفتح له باباً جديداً من الحقيقة. بعد ساعة كاملة، ظهر التابوت الخشبي أخيراً، فتحه بيدين مُرتعشتين، ليجد بداخله كيساً طويلاً مُعبأً بالرمال ليثقل التابوت عند حمله.

في اليوم التالي، اتّجه إلى مدينة أيودا الصغيرة، التي كانت تبعد حوالي ثلاث ساعات، وتوجه مُباشرةً إلى المكتب العقاريّ الوحيد في المدينة، وسأل الرجُل هناك عن عائلة نوفل ونيلان وبيع منزلهم، لكنه لم يكن يملك أيّ معلوماتٍ تخص العائلة.

بعدما خرج من المكتب العقاري، زار الدوائر الحكومية والسجلات المدنية، ليكتشف بالنهاية أن نيلان قد كذب عليه، وأنَّ نوح لم يتحقق من هذه المعلومات لعدم حبه للسفر أو السؤال عن مثل هذه الأمور. بينما كان يعود إلى آماريا، قرر التوقف في مدينة فوهة. كانت فوهة أصغر من أيودا بقليل، وكأنها قرية مهمشة وضائعة، جلس في مطعمٍ صغير على جانب الطريق، بالقرب من النافذة المُطلة على الطريق العام.

تقدم إليه النادل، وطلب منه وجبةً سريعة لشدة تعبه وجوعه، وبينما كان ينتظر طعامه، توقفت دراجتان ناريتان أمام باب المطعم، ونزل منهما شابان تتراوح أعمارهما بين العشرين والثلاثين وجلسا على الطاولة المجاورة له.

كان ليفار يتأمل الطريق العام، وتعجّب من الدراجات النارية التي تدخل مدينة فوهة عبر الطريق الفرعيّ، التفت إلى الشابين وقال:

- هل جميع أهل فوهة يركبون الدراجات النارية؟

ضحك أحدهما وردّ مازحاً:

- يبدو أنّك غريبٌ عن المدينة، يمكنك القول إن الدراجات هي الوسيلة الرئيسة هنا، فالسيارات لا تدخل الطُرق الفرعية لصغر حجمها، لذلك الجميع يُفضل الدراجات.

قرر أن يستغل الفرصة:

- هل تعرفان شخصين باسم نوفل ونيلان؟

رد الشاب الآخر بجدية مُفاجئة:

- بالتأكيد، نيلان شابٌ ذكي ومحترم، كان يدرس في العاصمة، أما نوفل، فقد كان مزعجاً، ودخل السجن عدة مراتٍ بتهمة السرقة.

تجمّد للحظات:

- هل هما من سكان فوهة؟

- نعم، ولكن لم أنت مُستغربٌ هكذا؟ هل فعلا لك شيئاً؟

- هل تعرفان أين هو نيلان الآن؟

تبادل الشابان النظرات وقال أحدهما "لقد سافر منذ حوالي خمس سنوات، أليس كذلك؟ "رد الآخر" نعم، نيلان سافر، أما نوفل فكان مسجوناً حينذاك على ما أعتقد".

توجه ليفار فوراً إلى مركز الشرطة الصغير في وسط المدينة، واستفسر عن نوفل وتاريخه مع الجرائم، ليخبره الضابط المناوب عن قصصه مع السرقات، وأكد خبر انتقاله إلى آماريا.

بعد سماع جميع المعلومات اللازمة، عاد إلى آماريا، وحاول استرجاع ذاكرته، فقد كان مُتأكداً، بأنه سمع اسم نوفل من قبل؛ بينما كان يفتش بين ملفات السرقة القديمة، التي تعود إلى أربع سنوات، وجد مُذكرة توقيف بحق نوفل بتهمة السرقة، بعد انتقاله من مدينة فوهة بثلاثة أشهر.

تفاجأ أيضاً بالكفالة التي دُفعت من قبل نيلان بعد أيامٍ قليلة من القبض عليه. اتصل فوراً بالمطار الدولي، ليتحقق من سفر نيلان قبل دفع الكفالة، وبالفعل أكد رجال المطار ذلك.

جمع فريقاً من عناصر الشرطة ومن ضمنهم ريان، وتوجه بسرعة إلى منزل نيلان؛ صفارات الشرطة قد ضجت المدينة في ذلك الوقت، ومع اقتراب الصوت من منزله، شكّ نيلان بأنهم متجهون إليه، فقفز من النفاذة وهرب بين الطرق الفرعية.

بعد عدة دقائق من البحث، شاهده ليفار من بعيد وهو يركض باتجاه مركز المدينة، ليبدأ هو ورجاله باللحاق به، "حتى أمسكه شرطيٌّ ذو

بنيةٍ رياضية، ولشدة قبضته، صاح نيلان "ليس لي علاقة! دعوني وشأني!".

في تلك اللحظة التي بدا فيها الزمن وكأنه توقف، مزقت طلقةٌ نارية سكون المكان، مُخترقةً رأس ليفار، لتُفتّت ملامح الحياة من عينيه بقبضةٍ قاسية.

ركضت ريان نحوه ورمت بجسدها بجانبه، لتحمل رأسه المثقوب بين ذراعيها المُرتجفتين، وكأن الحياة تتسرب من بين أصابعها بهدوءٍ شديد.

بعد عدة أيام، وقبل ساعاتٍ قليلة من المحاكمة، تفاجأ الجميع في مركز الشرطة بوفاة نيلان في زنزانته بدون سببٍ واضح، تاركاً خلفه أسئلةً أكثر مما كانت في البداية.

"الشجاعة هي أن تكون نفسك في عالم يحاول باستمرار أن يجعلك شيئاً آخر"

رالف والدو إمرسون

مُحاولات بائسة – 16 نوفمبر 2003

الساعة الرابعة مساءً

في تلك المدينة التي غمرها ضبابٌ كثيف، كأمواج من البحار، تسري في شوارعها وأزقتها الضيّقة، وتخفي ملامحها المتآكلة خلف أحلام قديمة، تلك التي لم تستطع النجاة من هذا الطوفان وبقيت في القاع دون أن تعلو مجدداً.

كانت آماريا تئن تحت ضربات السُحب الداكنة، كأنها تقتحم سماءها عنوةً، لترمي بآهاتها مع كل قطرة مطر، وتستقر في صدعها القديم. في وسط هذا السديم البارد، وقفت الأبنية المتهالكة بثبات مع أصوات السيارات وصدى محركاتها، التي تخللت هدوء الليل، أما المصابيح المُعلقة فقد كافحت بقوة لتبقى مضاءة عبر ذلك الرذاذ المتساقط على زجاجها المتسخ، لترسل خيوطا واهنة من ضوئها الشاحب على الطريق، وكأن النور نفسه قد استسلم للظلام المتسلل من كل الزوايا.

المارة كانوا كالأشباح البشرية، يمشون ببطء على تلك الأرصفة المُبتلة وينقشون مقاسات أقدامهم عليها، وكأن الرصيف نفسه يحفظها في قطرات المطر، كمرآة قديمة سطا عليها الوحل بقوة. لوحات الإعلانات، التي كانت يوماً ما نابضة بالألوان والحياة، أصبحت مجرد رموز عشوائية، تعلوها طبقاتٌ من الصدأ، وكأن الحديد نفسه قد توقف عن التنفس، ليستسلم في حضن الماضي، ويرفض التقدم.

في الجانب الغربي الضيّق من المدينة، وقف مركز الشرطة شامخاً كقلعة حصينة، واجهته الحجرية، موشومة بآثار التاريخ المُتراكم ومُغطاة بطبقات من الطحالب الخضراء، فقد ضلت الشمس طريقها عن تلك الجدران، تاركةً للرطوبة الثقيلة أن تتغلغل في أحشائها كخيوط خفية، تخط على حجارة المركز وكأنها تروي حكاية صمودٍ أبدي.

توقفت سيارة الأجرة أمام المركز، وكأنها تسللت من عالمٍ آخر، وبخطواتٍ ثابتة، ترجّلت منها ميرا؛ فتاةٌ بيضاء البشرة، تُضاهي في توهجها ضوء القمر الذي أنار للعميان طريقهم نحو جنتها، أما عيناها البنيتان فقد كانتا كنافذتين مفتوحتين على عالمٍ يسكنه الصفاء، حملتا في طيّاتهِما أسراراً كونية، تلك الأسرار نفسها تألقت تحت رموشها الطويلة، وزيّنت عينيها بشكلٍ أنيق، إنها كتلك العاصفة الهادئة التي تمشي على الأرض، وتحمل معها آيات الله المقدسة.

كانت تحمل في ملامحها تناقضاً جميلاً، فحتى تلك الحبة الصغيرة على وجهها، التي بدت كنجمةٍ بعيدة في فضاءٍ سحيق، اختارت أن ترسو على بشرتها الناعمة، وكأنها بوصلة لزمنٍ لا يدوي - لا ضوء يشبهه ولا مسار ينال منه، لم تكن مجرد أثرٍ عابر، بل حافظت على إخلاصها العميق لتلك الحكايات التي لا تنطقها الشفاه، كانت كعين الإلَه الساهرة،

لا تغفل ولا تنسى، وتحرس ذكرياتها بوفاءٍ مقدّس، وكأنها شاهدة أبدية على ماضيها.

شعرها الكستنائي الداكن، الذي عكس قوتها الصلبة في عقدةٍ والتواءٍ متين، كان ثابتاً في مؤخرة رأسها، لا يترك أيّ خُصلاتٍ طائشة تنفلت من قبضتها أو تتطرف من انضباطها، وكأنها كانت تربط كل أفكارها في مكانٍ واحد؛ أما أسنانها الأمامية، التي بدت وكأنها تنحني بخجلٍ إلى الخلف كزهرتين صغيرتين، تحاولان الاحتماء من قسوة النهار وأهوال العالم.

كانت ترتدي قميصاً أسود بسيط، يبرز أناقتها الهادئة وروحها المنضبطة، وزينت عنقها قلادةٌ متدلية بتصميمٍ هندسيٍ فريد، اختزنت فيها المعاني العميقة لحياتها.

شقت ميرا طريقها نحو عالم الجريمة والتحقيق بقسوةٍ وعناد، وحملت بين طيّاتِ روحها، أملاً متقداً بأن تصبح مُحققةً مشهورة؛ لم يكن حلمها بأن تصبح مُحققة مجرّد خيال، بل كانت معركة ضد واقعٍ لا يرحم، في بيئةٍ تفتقر إلى التقدير والإمكانيات، وفي مجتمعٍ لا يرى في النساء سوى حدود ضيقة ومرسومةٍ بدقة.

كانت قصص الغموض والجريمة تسكن خيالها كظلالٍ لا تفارقها، تقضي ساعاتٍ طويلة وهي تبحر بين صفحات الكتب البوليسية وتبتلع أوراقها بشغف، وتفكك جرائمها قبل أن تصل الحبكة إلى ذروتها. كانت تراقب نظرات الناس المليئة بالشكوك والاستهجان، وتسمع إلى أصواتاً تطالبها باختيار طريقٍ أسهل، لكنها كانت تحمل بداخلها شعلة إصرارٍ لا تنطفئ، تدفعها للتحدّي مع كل مُنعطف. بعد تخرجها في المدرسة الثانوية، أدركت أن طريقها إلى أكاديمية الشرطة لن يكون مفروشاً بالورود، وخصوصاً لفتاة، فقد واجهت تحدياتٍ جسدية ونفسية هائلة، ونظرات زملائها الذكور التي تطفح بالسخرية، لم يضعفها، بل زادتها إصراراً على إثبات قدراتها.

كانت تعمل في النهار في مقهى صغير، وتجمع المال لدراستها القانون والعدالة الجنائية، وتطالب نفسها بالمزيد في كل يوم، وتدفع بجسدها وعقلها إلى أقصى حدود التحمل، مُصممةً على أن تثبت للجميع إنها تمتلك القوة الكافية للنجاح.

رغم كل الصعوبات، كانت هناك لحظاتٌ تبقيها متعلقة بحلمها، فعندما اجتازت أول اختبار في التحقيق، فرحت بشدة وكأن العالم قد أضاء ظلمتها أخيراً.

وقفت أمام مركز الشرطة وهي تتأمل واجهته المُتعبة، وتتطلع إلى البوابة المعدنية الكبيرة التي تحمل لوحةً قديمة تشوهت منذ زمن. "أخيراً" همست لنفسها وهي تدلف إلى الداخل، لتنتقل جميع الأنظار نحوها:

- مرحباً.

تقدم نحوها نوف، شابٌّ في منتصف الثلاثينيات، أصلع الرأس، يملك شارباً كثيفاً يتدلى بشكلٍ مستقيم نحو الأسفل، دون أن يلتف أو يتجعّد، وكأنه تجسيدٌ لتفاصيل وجهه الصارمة:

- أهلاً... كيف يمكنني مساعدتكِ؟

ردت بحماسة أنثوية:

- أنا ميرا، المُحققة المرسلة من العاصمة.

ضحك بسخرية، ونادى زميله نارون من الغرفة المُجاورة:

- تعال وانظر، قالوا سيرسلون مُحققاً، فأرسلوا فتاة!

اقترب نارون وتغيّرت ملامحه وهو ينظر إليها بازدراء، وكأنّما يرثي مصير المكان الذي صار بين يدي امرأة، تحدث بتهكُم:

- ربما أخطأتِ بين طريق المطبخ وطريق التحقيق، هل أنت متأكدةٌ بأنهم أرسلوكِ إلى هنا كمُحققة؟

نظرات الاستغراب والاستهزاء تسللت من أعين الجميع في المركز، فلم يكن يتقبلوا فكرة وجود امرأةٍ تعمل بينهم كمُحققة، بل وتتفوق عليهم رتبةً وتوجه إليهم الأوامر.

رغم التحرر الفكري الذي اجتاح العالم، كانت آماريا تعيش كأنها في العصور الوسطى، مُتمسكةً بعاداتٍ وتقاليدٍ لا ترى للمرأة مكاناً خارج حدود المطبخ، وبجوار زوجها وأطفالها، وإن عملت في الشرطة، فمكانها خلف الأرشيف أو في الأعمال المكتبية، لا في أروقة الجريمة.

تغيرت ملامح ميرا للقاء الأول مع زملائها بعد حماستها الشديدة بالتعرف عليهم؛ تقدم إليها جايا، الضابط المسؤول عن المركز في مدينة آماريا، وملامحه تحمل قسوة العالم كله:

- أهلاً بكِ... أنا جايا، غرفتكِ في نهاية الممر.

هزت رأسها بامتنان ومضت صوب غرفتها تحت سطوة تلك الأضواء الصفراء الباهتة، التي كانت تزيد من حدة الكآبة. مشت في ذلك الممر الطويل، الذي كان يعجُّ بصوت ضرباتٍ مُتفرقة على لوحات المفاتيح القديمة، ورائحة القهوة الباردة التي امتزجت برائحة الورق العتيقة.

كانت النوافذ العالية تكشف عن المدينة المغمورة في عباءتها الرمادية، وكأن النهار هناك لم يكن سوى قناعٍ مسرحي، يحمي واقعاً مجرداً.

دخلت غرفتها وتفاجأت بحجمها الضئيل وفوضاها العارمة؛ أوراقٌ مُمزقة، الأتربة تغطي كل شيء، حتى العناكب، اغتصبت تلك الزوايا وجعلتها مأوى لها في شتائها المُعتم. أدركت فوراً أن جايا أعطاها تلك الغرفة عن عمد. تنهدت عميقاً، وبدأت بتنظيف الغرفة بهدوء، وكأنها تعيد ترتيب ذكرياتها على رفوف تلك الأيام القاسية التي مرت عليها. أخذت تزيل الغبار وتعيد ترتيب الأوراق المُتناثرة، وأزالت الساعة القديمة على الجدار، وعلقت لوحاتها الغريبة التي كانت دائماً ترافقها أينما ذهبت، وبعد ساعةٍ كاملة اقتحم نارون الغرفة وقال بسخرية:

- النساء بارعاتٌ في التنظيف، لا شك في ذلك.

تجاهلت السخرية وخرجت من غرفتها الصغيرة بخطى وئيدةٍ نحو مكتب جايا في الطابق الثاني، طرقت الباب بخفة، ثم دخلت:

- لقد انتهيت من ترتيب غرفتي، كيف يمكنني البدء؟

لم يكلف جايا نفسه عناء النظر إليها، كان مشغولاً بتفحص بعض الأوراق بمللٍ ظاهر، وكأن حضورها لا يعني له أكثر من ضوءٍ خافت في زاوية الغرفة الباردة، رد ببرودٍ دون أن يرفع عينيه:

- بماذا؟

- بأيّ قضية يمكنني البدء؟

رفع رأسه ببطء، ونظر إليها بجمود:

- ستبقين في تلك الغرفة طيلة حياتك، أنتِ هنا مجرد حائط لا أكثر، ولا أحد سيعترف بكِ كمُحققة في المركز.

- ولكنني...

قاطعها بحدة وهو يشير إلى الباب:

- يمكنكِ الخروج، كان يجدر بكِ البقاء في العاصمة.

خرجت من هناك وهي تحاول كبح غضبها، الذي كان يشتعل كلهيبٍ تحت رمادها الهادئ ويخفي ثورتها المتأجِّجة؛ كانت عيون العاملين تلاحقها، وكأنهم ينتظرون منها ردة فعلٍ تكسر صمتها، همس أحدهم بسخرية:

- لا عليك، ستعتادين على الأمر.

وصلت أخيراً إلى غرفتها، وجلست على الكرسيّ المُهترئ، وأمسكت بقلمٍ هناك، وكأنها تمسك زمام العالم بأسره.

طُرق الباب فجأةً، ودخل نوح بابتسامته الواثقة ومظهره التقليدي، وشعره الذي شابّ مع الزمن، تقدم نحوها:

- مرحباً، أنا نوح المُحقق في القضايا الداخلية والخارجية في آماريا.

صافحته ميرا بيدٍ باردة، تخفي ارتجافاً صغيراً خلف ملامحها المتماسكة:

- أنا ميرا... المُحققة الجديدة.

ركّز نوح على تفاصيل وجهها الجميل:

- سمعت أن السيد جايا قد صرخ في وجهكِ؟

- لا أعلم ماذا فعلت لأستحق هذا، كل هذا فقط لأنني فتاة؟

- الجميع هنا يجدون صعوبة في تقبل فكرة وجود امرأةٍ أعلى منهم رتبةً، إنه أمرٌ مألوف في هذه المدينة.

- ألم يكُن في قسم التحقيق أو المركز امرأةٌ غيري من قبل؟

- كانت هناك ريان، تعمل كشرطية عادية وفي بعض الأحيان حارسة، لكنها استقالت منذ عشرين سنة.

ترددت ميرا قليلاً، ليسألها نوح بشكلٍ فضولي:

- هل يمكنني السؤال، لماذا اخترتِ هذه المدينة بالذات؟ ولماذا لم تبقي في العاصمة؟

- بعد تخرجي، أبلغني المسؤولون بوجود نقصٍ في المُحققين بمدينة آماريا، إثر مقتل أحدهم...لا أتذكر اسمه.

- ليفار!

- يا إلهي، ما هذا الاسم الغريب؟ وكأن والده استقى من الإغريق هذا الاسم.

ضحك من تعليقها:

- نعم، إنه كذلك، آخر مرة رأيته كان منذ عشرين سنة.

- عشرين سنة؟ ولم يُعيّن أحدٌ بعده؟

- مدينتنا هادئة، والجرائم فيها نادرة، لذلك لم يكن هناك حاجة لتعيين مُحققٍ جديد.

- هل كان ليفار يُحقق في القضايا الخارجية فقط؟

- لا، بل كان يحقق في القضايا الداخلية.

نظرت ميرا إلى ساعة يدها:

- لقد تأخرت، لدي موعد مع صاحب المنزل.

- أيّ منزل؟

أجابت وهي تهم بالرحيل:

- استأجرت منزلاً صغيراً بالقرب من هنا، لكن الكهرباء كانت مقطوعة فيه، يجب أن أذهب.

قال وهو يشير بيده، كمن يلوح بسيف الشهامة:

- أنا أعرف الجميع في المدينة، سأوصلك وأتحدث مع صاحب المنزل بنفسي.

ابتسمت امتناناً:

- شكراً لك، يبدو أنك الشخص الوحيد الذي سيقف بجانبي هنا، سأعزمك على فنجان قهوة بمناسبة منزلي الجديد، وسنكمل حديثنا.

وصلا إلى المنزل بعد دقائق، وتحدث نوح مع صاحب المنزل بأسلوبه المعتاد، وكأن الرجُل يدنيه رتبة.

بعد أن تمّ إصلاح الكهرباء، جلس الاثنان في المطبخ الصغير، وأحضرت ميرا فنجانين من القهوة، وأمسكت طرف الفنجان وكأنها تمسك ماضياً متردداً:

- درست في العاصمة وتخرجت هناك، ولكن انتهى بي المطاف في هذه المدينة الصغيرة.

- ستعتادين عليها.

أخذ نوح رشفة من الفنجان، وقال بحزن:

- كنت أحلم بالعمل في العاصمة.

- لماذا لا تُقدم طلباً لنقلك؟

- قدّمت طلباتٍ عديدة، لكن جميعها رُفضت، العاصمة مُغلقة على نفسها، ولا يقبلون أيّ شخصٍ بسهولة، ولا أملك دعماً لهذا الموضوع.

- أنا آسفة، لو كنت أعرف أحداً هناك، لتوسطت لك.

- لا بأس، الأحلام تبقى مجرد أحلام، أخبريني هل أعجبكِ المكان هنا؟

- ليس كثيراً، جميع من في المركز لا يتقبلونني كمُحققة، فكيف بسكان المدينة.

- لماذا لم ترفضي القدوم إلى هنا؟

- اعتبرتها فرصة لبدء مسيرتي المهنية، مدينة صغيرة، قضايا أقل، كانت تبدو كضربة حظ.

- صحيح.

- لماذا لم يتم تعيين مُحققٍ آخر منذ وفاة ليفار؟

قال بتأنٍ، وكأن الأحداث تمر أمام عينيه:

- كانت مدينتنا هادئةً لفترة طويلة، لكن في الآونة الأخيرة، بدأت السرقات تتوالى، وأحد المنازل التي تعرضت للسرقة، كان منزل مسؤول البلدية، الذي بادر إلى إبلاغ العاصمة بعد أن بلغ به الغضب أقصى حدوده.

قالت بفضول:

- هل يمكنك إخباري بالتفاصيل؟

- قبل شهر، سُرقت أحد المنازل الثرية وبعد تحقيقنا الذي دام لأسبوع كامل بدون جدوى، اعتقدنا أنها سرقةٌ عادية، لكن الأمور تطورت وسُرقت بعدها ستة منازل أخرى.

سرد نوح تفاصيل المسروقات وسلوك السارق المثير للريبة، الذي بدا وكأنه يسخر من رجال الشرطة، بتركهِ رسالة خلفه في كل مرة.

لتقول ميرا بسخرية:

- يجب علينا تسميته بالسارق المُتسلسل.

- فعلاً، يبدو أنه ذكي، فهو لا يترك أيّ أثرٍ خلفه، ولا حتى ذرّة هواءٍ تهرب من فمه.

قالت لنفسها "ربما أنتم الأغبياء، وليس هو الذكي":

- سبع سرقاتٍ دون أيّ دليل؟

- كل ما يتركه خلفه هو رسالةٌ صغيرة "مُحاولات بائسة".

- مُحاولات بائسة! يبدو أنه يسخر منكم بالفعل.

نهض نوح من مكانه ببطء، وتأمل اللوحات المعلقة على جدران:

- لماذا أنتِ بالذات؟ هل كنت بارعةً في القبض على السارقين؟

- ليس هناك سببٌ محدد، ربما لأنني كنت الأولى على دفعتي.

حملت فناجين القهوة وأخذتها إلى المطبخ:

- هل يمكنك إخباري بتفاصيل تلك القضية المُتعلقة بالمُحقق... ماذا كان اسمه مجدداً؟

أجاب بصوتٍ منخفضٍ، وكأن الأحداث القديمة عادت لتطفو على السطح:

- ليفار، ليست هناك تفاصيل كثيرة، قُتل أثناء مُحاولتنا القبض على شخصٍ ما.

وهل ألقيتم القبض على من قتله؟

- لا، القضية ما زالت مجهولة لحد هذهِ اللحظة.

رفعت ميرا حاجبيها:

- عشرون عاماً والقاتل ما زال طليقاً؟

- ربما القاتل نفسه ميتٌ الآن.

- كيف يمكنني البدء بالعمل هنا، وجايا لا يتقبلني؟

- يمكنك العمل معي بدءاً من اليوم، فأنا بحاجة لمن يساعدني في القبض على هذا اللص الذي أقلق المدينة منذ أسابيع.

أستأذن نوح بالخروج، وتوجه نحو المركز، أما هي فبدأت بإكمال ترتيب أثاث منزلها وشراء الأغراض اللازمة.

في اليوم التالي، وصلت إلى المركز وتفاجأت بصوت جايا يتردد في أرجاء المكان، دخلت عبر الباب، ورأت الجميع في حالةٍ من التوتر الواضح.

كان جايا يصرخ بغضبٍ على الموظفين، يلوح بالأوراق في يديه وكأنها شظايا سُقطت من إحباطه المُستمر:

- ثمانية منازل سُرقت، وأنتم لا تفعلون شيئاً! لا أملك سوى مجموعةٍ من الحمقى!

بعد أن تنهد عميقاً، التفت إلى نوح وقال بصرامة:

- نوح، خذ معك نوف ونارون وأذهبوا إلى المكان فوراً.

نظر إلى ميرا:

- خذ معك ميرا أيضاً لتساعدك.

نوف حاول الاعتراض على مرافقتها:

- لكن يا سيدي...

قاطعه بغضب، ثم رمى الأوراق في وجهه:

- أخرس! لا أريد سماع كلمة واحدة.. أين هو أوريس؟

ظهر أوريس، خبير البصمات، رجُلٌ في الخمسينيّات من عمره، يرتدي نظارةً سميكة ويحمل حقيبةً سوداء في يده اليُمنى، تقدم نحو

ميرا وسلم عليها بابتسامة لطيفة، فهو الوحيد الذي لم يُكن يحمل تلك النظرة التقليدية التي تستهين بالمرأة هناك.

بينما كانت ميرا تستعد للذهاب مع نوح، اقترب منها جايا:

- ستعملين مع نوح من اليوم، ولا أريد أيّ اعتراض.

جمع الفريق مُستلزماتهم واتّجهوا بسيارة الشرطة نحو المنزل؛ كان المنزل مبنياً بمزيجٍ من الحجارة والخشب، وله قاعدةٌ حجرية تمتدُّ حول الطابق الأرضيّ.

الجدران الخشبية الداكنة كانت محاطةً بشرفتين واسعتين في الطابق الأرضيّ، وسياج خشبيٍّ مُزيّن بنقوشٍ مُربعة، ونافذتين كبيرتين تطلان على الخارج، وتحت إحداها دراجةٌ هوائية. كان السطح المائل، مُغطى بألواحٍ قرميدية داكنة، تتوسطه مدخنةٌ حجرية، أما الحديقة الصغيرة، فقد كانت مشذّبةً بعناية، تحيط بها مساحاتٌ خضراء، وممرٌّ حجري يؤدي إلى المدخل الرئيسي. بينما كان الجميع يتأملون جمال المنزل، اقترب صاحبه بملامح مشوشة وصوتٍ مُرتجف، وكأنه يخفي انهياراً وشيكاً:

- تفضّلوا بالدخول.

كان الطابق الأول عبارة عن قاعة استقبال، تنقسم إلى غرفة واسعة، ومطبخٍ مُصمم بأسلوبٍ عصري، ومُجهزٍ بأحدث الأجهزة ويطل على الحديقة الأمامية عبر النافذة.

عند المدخل، قرب الغرفة، كانت الساعة البندولية الكبيرة مقلوبة، وزجاجها الأمامي مُحطم، والبندول الحديدي مفقودٌ منها، كما لو أن السارق اقتلعه عمداً.

في داخل غرفة، كان الأثاث مُبعثراً، الكراسي مقلوبة، الطاولات الصغيرة مائلة، الوسائد مُتناثرة، الرفوف فارغة، والأدراج كانت مفتوحةً على مصراعيها، أما لوحات الجدران كانت مائلة وملقاة على الأرض، بدت تلك الغرفة وكأنها شهدت هجوماً عنيفاً. بينما كان نوح يتمعن في التفاصيل الدقيقة، قالت ميرا:

- يبدو أن السارق كان يبحث عن شيءٍ صغير، بحجم قامته.

نظر الجميع إليها بتساؤل، ليقول نوح:

- ماذا تعنين "بحجم قامته"؟

- قصدت شيئاً صغيراً بحجم قامته، ربما بطوله، فالسارق قصير القامة.

تبادل الجميع النظرات مجدداً، لكن نوف لم يستطع كبح سخريته وقال باستهزاء:

- وكيف عرفتِ أنه قصير القامة، ونحن لم نبدأ بعد؟

- عند دخولنا، لاحظت دراجة هوائية تحت النافذة..

قاطعها نوف:

- وما علاقة الدراجة بطوله؟ أنتم النساء لا أعلم كيف تفكّرنِ!

ابتسمت في وجهه:

- لو كان باستطاعتك فهم النساء، لأنجبت طفلاً.

مشت صوب النافذة وأكملت شرحها بثقة:

- ارتفاع هذا المنزل يُقارب أربعة أمتارٍ ونصف، والنافذة في الطابق الثاني تبلغ حوالي ثلاثة أمتار، وبما أن سارقنا هذا قصير القامة، مثل عقل نوف، فقد احتاج إلى الدراجة ليرفع نفسه.

قبل أن يبدأ نوف بالرد على الإهانات، أوقفه نوح بإشارةٍ من يده، ليتدخل صاحب المنزل، الذي بدا مُتلهفاً لسماع المزيد:

- صحيح، أن ارتفاع المنزل أربعة أمتارٍ ونصف، هل تقصدين أن السارق تسلل عبر الطابق الثاني؟

- الدراجة الواقفة للرجال، وارتفاعها حوالي 80 سم، إذا كان السارق طوله نحو 165 سم، ومع رفع ذراعه للأعلى، سيصل إلى النافذة بصعوبة، وتلك الحافة ساعدته في التسلق.

نظرت إلى صاحب المنزل وأكملت:

- هذه المنازل بحاجة إلى تهوية مستمرة بسببِ الرطوبة، وأنت معتادٌ على ترك النافذة في الطابق الثاني مفتوحة، أليس كذلك؟ واليوم هي مغلقة، وأنت لم تُغلقها بنفسك؟

قال بدهشة:

- كيف لم ألاحظ ذلك؟ ولكن الغرفة في الطابق الثاني نظيفة للغاية!

- لو كانت الغرف مملوءةً بالفوضى، لكُنا ركزنا البحث هناك، لكن نظافتها تشير إلى أنه لم يترك آثاراً ظاهرة، مما يجعلنا نتعامل مع القضية بحذرٍ أكبر.

نارون، الذي حاول إيقاعها في خطأ، قال مُتشككاً:

- هذا السارق يبدو دقيقاً ولا يترك أيّ أثرٍ خلفه، حتى لو سرق شيئاً من الطابق الثاني، فهو بالتأكيد نظّف المكان كعادته.

- ما تقوله ليس صحيحاً، السارق يتملكه الخوف عند كل سرقة، حتى وإن كان قوي القلب، سيتملكُه الخوف بشكلٍ لا إرادي، فعند دخوله منتصف الليل إلى تلك الغرفة المُظلمة..

قاطعها مجدداً، بينما كان الجميع يصغي إليها:

- ولماذا تفترضين أنه تسلل في منتصف الليل؟

أشارت ميرا إلى الساعة البندولية المُحطمة وقالت:

- انظر إلى الساعة خلفك، لقد أخرج السارق البندول منها، ليس هناك سببٌ لتحطيم الساعة سوى انزعاجه من صوتها عند منتصف الليل.

- ربما أعتقد أن البندول من الذهب أو الفضة!

- كم هذا السارق أحمق، سرق عدة منازل ولم يحطم الساعات البندولية إلا هنا.

وضع أوريس حقيبته على الأرض، وصفق لها بإعجاب:

- رائع، يبدو أنكِ ستكونين مُحققةً بارعة.

شعر نوح بغيرةٍ مكبوتة تسري في داخله، وأخرج دفتر ملاحظاته الصغير، وقال لصحاب المنزل:

- حسناً، أخبرني عن المسروقات.

- لم يسرق شيء...

قاطعه بتعجب:

- كيف لم يسرق شيء؟

- أجاب بصوتٍ مُتحشرج:

- لم يكن شيئاً، كان أحد أطفالي، سرق تمثالاً صغيراً من الذهب الخالص.

قال أوريس بهدوء شديد وهو يرفع حاجبيه:

- هذا يؤكد ما قالته ميرا، الهدف كان التمثال فقط.

ردت ميرا عليه بجدية:

- هل يمكنك فحص النوافذ في الطابق الثاني؟

- ماذا عن هنا؟

- لن تجد شيئاً هنا، ابحث بدقة في الطابق الثاني، ربما ترك هذه المرة خيطاً خلفه.

شعر نوح بالانزعاج من سيطرتها على التحقيق وأخذها لدوره:

- ميرا، هل يمكنني التحدث معكِ على انفراد؟

خرج الاثنان إلى الخارج، ووقفا بجانب باب الحديقة، ليقول نوح:

- أنتِ هنا لمساعدتي، ولستِ المُحققة الرئيسية، لذلك ومن فضلكِ، لا تأخذي مكاني.

استغربت ميرا من لهجته، وارتدت قناعاً أنثوياً، اقتربت منه ببراءةٍ مُزيفة، وأمسكت قميصه بطريقةٍ طفولية:

- أرجوك، دعني أكمل التحقيق...

لم يستطع نوح كبح مشاعره، وقال بخجل:

- حسناً.. سأترككِ هذه المرة فقط.

بالرغم من رائحة عطره النتنة، اقتربت منه وقبّلت خده، لتصل إلى غايتها. وقف متجمداً في مكانه، مأسوراً بلحظة لم يتوقعها، فقد كانت تلك القبلة الأولى التي يتلقاها. عادت ميرا إلى الداخل، لتواصل الحديث مع صاحب المنزل دون إعطاء أهمية لما حدث:

- حسناً، أين كانت تلك القطعة الذهبية؟

أشار صاحب المنزل نحو الحائط المقابل للنافذة الكبيرة، وقال:

- كانت هنا، على هذا الرّف، موضوعة في صندوقٍ زُجاجي مُحكم الإغلاق، أرجوكم أخبروني أنكم ستلقون القبض على السارق.

عاد نوح إلى الداخل:

- لا تقلق، سنقبض عليه قريباً.

نظرت ميرا إليه بسخرية، وقالت لنفسها " لو قبضتم عليه، لكنتم فعلتم ذلك بالفعل":

- أريد أن أسألك أين كنت بالأمس، واشرح لي كيف وجدت السرقة.

بدأ صاحب المنزل بسرد قصته، وناورن يلاحق كلماته ويدونها على دفتره:

- كنت خارج المدينة لمدة يومين، وعندما عدت في الثامنة صباحاً، وجدت المنزل في حالة فوضى.

رفع نارون نظره من الدفتر وملامح وجهه توحي بالشك:

- هل لديك تأمين خاص على ذلك التمثال؟

- لا، لم أعتقد يوماً أن منزلي قَد يتعرض للسرقة، ونادراً ما أغادره.

بعد مرور نصف ساعة من الأسئلة الروتينية، نزل أوريس على الدرج، وقال بإثارة واضحة "ربما توصلنا إلى دليل" تقدم نحو ميرا، وأعطاها كيساً مُغلقاً، يحتوي على بعض خصل الشعر الشقراء. تناول نوح الكيس من يده، وألقى نظرةً سريعة على محتوياته:

- بعض الخُصل، وتسميها دليلاً؟

- وجدناها عند قفل النافذة من الجهة العلوية، كانت متعلقة بسلك شائك برز قليلاً إلى الأمام.

التفت إلى صاحب المنزل:

- هل هناك فتاة تعيش معك في هذا المنزل؟ أو أحد أقاربك يزورك بانتظام؟

- أعيش وحدي في هذا المنزل، لكن ابنة أختي المراهقة تزورني أحياناً مع والدها، كما أن هناك امرأةً كبيرة في السن تُنظف المنزل من حينٍ لآخر، وهي تعرفنا منذ عشرين عاماً.

- إذن، لدينا مُتهمين...

لكن ميرا، التي كانت تقف بجانب الحائط الذي كتبت عليه مجدداً، وللمرة الثامنة عبارة "مُحاولات بائسة"، قالت ببرودٍ عن عدم اقتناعها:

- كُلما وسّعت دائرة المُتهمين، لن تصل إلى شيء، الفتاة المراهقة لن تهتم بتمثالٍ صغير، كما أنها لا تمتلك القدرة على سرقة منازل بهذه الخطة الذكية، أما المرأة التي تعمل هنا، فهي كبيرةٌ في السن، ولن تستطيع تسلق النوافذ، وحتى وأن كانت استعانت بأحدٍ لتنفيذ السرقة، لكانت نفذت خطتها منذ سنوات.

شعر نوح بغيرةٍ طفيفة من ثقتها، فرد عليها بنبرةٍ مُشككة:

- ربما تكونين مُخطئة، أنتِ من قلتِ إن السارق يعرف جيداً ما الذي يسرقه.

نظر نارون إليها بتعجب، بينما كان يواصل الكتابة.

- صحيح، هناك طرقٌ عدة لمعرفة ما إذا كان السارق يعرف هدفه بدقة، لدينا الآن وصفٌ تقريبيّ للسارق، بل وحتى لعقله.

ضحك نوح:

- عقله؟

- نعم، السارق امرأةٌ في العشرينيات من عمرها، بشعرٍ أسودٍ أملس، تسرق لغرضٍ مُحدد، وربما يكون هدفها سخيفاً بالنسبة لنا، لكنه مهمٌّ لها.

- وكيف علمت كل هذه التفاصيل؟

أشارت إلى الخصل في الكيس:

- المرأة التي تربط شعرها الأملس باستمرار، تعاني عادةً من هشاشة وخفة، وتتساقط خُصل شعرها باستمرار، كما أن فكرة استخدام شعرٍ مُستعار تشير إلى أن السارق لن يخطر بباله هذا الخيار إلا إذا تربّى بين عائلة مكونة من فتياتٍ فقط، والأهم من كل ذلك، جملة "مُحاولات بائسة" هي من صنع امرأة وليست من صنع رجُل.

ساد الصمت لثوانٍ، بينما كانت الكلمات الأخيرة لميرا تثير دهشة الحاضرين، وتشعل شرارة التفكير في عقولهم، وكأنها تقرأ تفاصيل لم يلاحظها أحدٌ من قبل.

تحليلها البارع لفت انتباه الحاضرين، فنظرات الإعجاب التي رسمت على وجه أوريس ونوف كانت تصرخ علناً، أما نوح، فمشاعر الغيرة اشتعلت بداخله كبركانٍ يغلي، أحس وكأن احترامه بين زملائه يتآكل شيئاً فشيئاً.

بدأ الجميع بجمع أغراضهم المُبعثرة وغادروا المكان، وبعد وصلوهم إلى المركز، بدأ نوح في البحث بين السجلات عن امرأةٍ تنطبق عليها تلك المواصفات التي استنتجتها ميرا، أما نارون ونوف، فقد توجها مباشرةً إلى جايا ليسلما تقريرهما.

شرح نوف بالتفاصيل المُملة الأحداث التي صارت هناك، وكيف أن ميرا قد غيرت مجرى التحقيق بكل سهولة ودقة، وأدهشت الجميع بذكائها الحاد، وقال بإعجاب واضح:

ـ لقد بدأت بالإعجاب بها واحترامها، أعتقد يجب عليك تعيينها كمُحققةٍ أساسية في جميع القضايا.

دخل أوريس الغرفة وبدأ هو الآخر بنقل إعجابه إلى جايا:

- بالمناسبة، لو لم تدل ميرا بملاحظاتها، لكنّا مازلنا نبحث في غرفة الاستقبال بدون جدوى.

كلامهم عنها أثار إعجاب جايا بها، اقترح نوف بخجل، وهو يحاول التكفير عن سخريته السابقة:

- ما رأيك يا سيدي، في تغيير مكتب ميرا إلى غرفة الأرشيف الكبيرة؟ ستكون مُفاجأةً لطيفة.

وافق جايا على الاقتراح بعد تفكيرٍ قصير وقال:

- جهزوا كل شيء، لنحتفل بها أيضاً، فهي تستحق التقدير.

بدأ نارون ونوف في نقل أغراض ميرا إلى غرفتها الجديدة، وزينوها بالبالونات ولافتة كبيرة كتب عليها "أهلاً بكِ بيننا".

في هذا الوقت، عادت ميرا إلى منزلها الذي بدا كلوحةٍ مُرتبة، كل شيءٍ يستقر في موضعه كأنّما ولد هناك، كانت من النساء اللاتي لا يُطقن أن تمتدّ يدٌ إلى أغراضهنّ، حتى لو كانت يد زوجها.

في اليوم التالي، وصلت إلى المركز كعادتها، لكن هذه المرة كانت المفاجأة في انتظارها، زملاؤها استقبلوها باحترامٍ واضح، تقدم جايا نحوها وهو يحمل هديةً صغيرة:

- هذهِ لكِ، لقد منحتنا أول خيطٍ منذ بداية تلك السرقات.

تغيرت نظرات الجميع تجاه ميرا، وبدأوا يظهرون تقديرهم لها، أما نوح، فقد كان يفقد احترام زملائه شيئاً فشيئاً، ولم يعره أحد أي اهتمام. مرّ أسبوعان على آخر سرقة، والمدينة بدأت تستعيد هدوءها؛ تقربت ميرا من زملائها، وبدأت تشعر وكأنها جزءٌ منهم، أحبوها بصدق وكأنها أختهم الوحيدة، وهي بدورها بادلتهم المشاعر ذاتها، لكن نوح ظل يخشى أن تأخذ ميرا دوره الرئيسي في المركز. في إحدى الليالي، احتفل الجميع بمولود جايا الأول بعد تسع سنواتٍ من زواجه، فقد كان ينتظر تلك اللحظة بفارغ الصبر، وفي وسط هذا الاحتفال، استغلت ميرا انتهاء الحفلة، ودخلت إلى غرفته وقالت بعد أن هنّأته:

- أريد فتح التحقيق في قضية ليفار مجدداً.

تفاجأ جايا من هذا الطلب الغريب:

- قضية ليفار؟ لماذا تريدين فتح تحقيقٍ مضى عليه عشرون عاماً؟

- ليس لديّ ما أفعله حالياً، وأريد معرفة ما حدث، فهي القضية الوحيدة الغامضة هنا.

- أجابها بصرامة:

- لا يمكنني الموافقة على فتح هذا التحقيق مجدداً.

- ولِمَ لا؟

- لا يمكننا إعادة فتح جروح الماضي، أنت بارعةٌ في التحقيق، ودقيقةٌ جداً في ملاحظاتك، لكننا لم نمسك السارق بعد.

- لم أعد أستطيع فعل شيءٍ هنا، نوح يبحث عن السارقة، أما أنا فأجلس في المكتب دون أن أنجز أيّ شيء.

- أنا آسف...

حملت ميرا أوراقها اليائسة وعادت إلى غرفتها، وأخرجت ورقةً وكتبت طلباً إلى قاضي التحقيق في العاصمة، تطلب فيه فتح التحقيق في قضية ليفار.

بعد أسبوعٍ كامل، وصلتها الموافقة من القاضي، فرحت بشدة، ودخلت مُسرعةً إلى غرفة جايا وهي تحمل الموافقة في يدها، قائلةً بحماسة:

- لقد وافق قاضي التحقيق على طلبي بفتح القضية.

اندهش جايا وانزعج من تصرفها، وقال بحدةٍ:

- ألم أخبركِ أني أرفض فتح التحقيق مجدداً؟

- صحيح، لذلك تحدثت مع قاضي التحقيق، حتى لو وافقت أنت، فإن رفض القاضي، لا يمكنني فعل شيء.

غضب جايا وصاح في وجهها:

- اخرجي من غرفتي، وأغلقي الباب خلفك، سأتحدث مع القاضي ليرفض طلبك.

انصدمت ميرا من ردة فعله الحادة:

لماذا ستفعل ذلك؟

- لأنّكِ لا تستحقين التقدير الذي أعطيتكِ، كوني على علمٍ، في أول فرصةٍ مُتاحة، سأنقلك من هنا.

بعد خروج ميرا من مكتبه، حاول جايا السيطرة على الموقف بغضبٍ مُتزايد، أمسك هاتفه واتصل بقاضي التحقيق، وحاول إقناعه بإغلاق التحقيق مجدداً، لكن رد القاضي جاء مُفاجئاً:

- كنت أنتظر مُحققاً ذكياً مثل ميرا لتعيد التحقيق في قضية ليفار، فقد كان شخصاً مُهماً بالنسبة لي...

أغلق جايا الهاتف وهو يشعر بخيبة أمل وغضبٍ شديد، نهض بعنفٍ من كرسيه، وبدأ يرمي الأوراق المُبعثرة على الطاولة بيديه، كأنه يحاول التخلص من تلك المشاعر. في تلك الأثناء، توجهت ميرا إلى قسم الأرشيف الجديد في الطابق الثاني، وطلبت من الموظف أن يسلمها ملف قضية ليفار، إلا أنه رفض:

- لن أسلمك أيّ شيءٍ دون موافقة رسمية من جايا.

ابتسمت ميرا:

- يمكنك التأكُد بنفسك، اتصل بجايا...

اتصل الموظف، لكن رد جايا كان مليئاً بالغضب "سلم ملف القضية لتلك الحمقاء، ولا تحدثني مجدداً"، أغلق الهاتف، وبدا عليه الاستغراب، وبهدوءٍ شديد، بدأ في البحث عن الملف الذي مضى عليه عشرون عاماً، نفض الغبار عن الأوراق، كأنه ينفض غبار ذاكرته المُتعبة، وسلم ميرا الملف. عادت إلى مكتبها وهي تشعر بثقل تلك الأوراق بين يديها، جلست خلف الطاولة، وتصفحت الملف، وكأنها تتصفح بقايا حياتها المُتناثرة، شعرت بالارتباك وهي تقرأ تفاصيل القضية التي تعود لعشرين عاماً.

في هذه الأثناء، عاد نوح إلى المركز بعد بحثه المستمر في قضية السرقات، دخل إلى غرفة جايا بسخريةٍ واضحة:

- ألم يتحدث طفلك بعد؟

نظر إليه بغضبٍ شديد:

- توقف عن السخرية!

ابتسم نوح:

- هل من المنطقيّ أن أراك منزعجاً، وأنت حصلت على طفلٍ جميل بعد انتظارك لسنوات؟

رد جايا وهو يغلي من الداخل:

- ميرا الحمقاء...

ضحك وقال:

- ما بها ميرا؟ هل ولدت طفلاً هي الأخرى؟

- قلت لك توقف عن السخرية! لقد تحدتني وفتحت قضية ليفار مجدداً.

تلعثم نوح قليلاً:

- ليفار! وكيف لها أن تفتح قضية مضى عليها عشرون عاماً؟ ولم وافقت على ذلك؟

- لم أوافق، بعد أن رفضت، جلبت موافقةً من قاضي التحقيق.

- يجب أن تطردها من المركز وتنقلها إلى العاصمة.

نظر إليه بشكٍ:

- لم أنت مُهتمٌّ بطردها؟ ما علاقتك بالأمر؟

- لا علاقة لي، لكنّنا في هذا المركز مثل سرب الطيور، إذا تطرّف أحدٌ عن السرب يجب علينا طرده، وإلا سيتبعه الباقون.

- صحيح، لكنّني أحتاج إلى سببٍ واضح.

تناول نوح كأس الماء بهدوء، وقال قبل أن يغادر الغرفة:

- حسناً، أراك لاحقاً.

كانت ميرا تتصفح ملف القضية مثلما تتصفح بقايا حياتها التائهة، تستغرب أحياناً، تكسر أقلاماً بيدها، كانت مُشتتة الذهن، بل ضائعة في متاهة لا نهاية لها، لم تكن قادرةً على التفكير "رجلٌ مُتوفّى قبل ثلاث سنوات من الجريمة، يقتل مُسناً يمضي إلى عمله بدون دافعٍ لقتله. يقبض ليفار على أخيه التوأم دون كتابة السبب، ويُقتل في حين إلقاء القبض عليه، ويموت القاتل بعد يومين من الحادثة في السجن بدون سبب، ما هذه القضية الغريبة؟".

استمرت ميرا في قراءة التفاصيل، وكأنها تقرأ روايةً بوليسية دون أن تصل إلى خيوطٍ تشدُها إلى أعماق القضية، فكلما قرأت، ازدادت حيرتها. دخل نوح إلى غرفتها:

- يبدو أنكِ مُتحمسةٌ بشدة لهذه القضية.

- أهلاً نوح، إذن أخبرك جايا، إنها قضيةٌ مُحيّرة، من كان يعمل مع ليفار في ذلك الوقت؟

- لا أحد، كان يعمل لوحده.

عاد نوح إلى عمله بعد حديثٍ قصير، أما ميرا فلم تجد شيئاً تبدأ منه، فقررت التوجه إلى الأرشيف القديم، لتغوص بين ملفاتٍ تجاوز عمرها العشرين عاماً.

كانت تتصفح تلك الأوراق المُهترئة بتمعُّنٍ، حتى استوقفتها عدة استقالاتٍ، من بينها استقالة ريان، التي وقعت مباشرةً بعد الحادثة، واصلت بحثها ووجدت عنوانها، وتوجهت فوراً إلى منزلها. طرقت باب منزلها، وما أن فتح حتى ظهرت أمامها امرأةٌ عجوز قد أنهكها الزمن، كانت خطوط وجهها محفورةً بعمق، بينما تساقط شعرها بفعل مرضٍ مُزمن، وكأن المرض سرق منها كل معالم الحياة. نظرت ريان إلى ميرا بعينين واهنتين، قبل أن تسأل بصوتٍ خافت، صادرٌ من قلبٍ مُثقل بالألم:

- من تكونين يا ابنتي؟

عرّفت ميرا عن نفسها بلطف، ودخلت المنزل بحذر، كان المنزل بسيطاً، لكنه بدا موحشٌ من الداخل، وكأن الحزن قد تغلغل في كل زاوية؛ رغم تقدّمها في العمر، كانت ذاكرتها تحتفظ بتفاصيل حية عن الماضي، بل شاهدة على حادثةٍ غيرت حياتها.

كانت عيناها تكشفان عن ذكرياتٍ أليمة حملتها لسنواتٍ طويلة، سردت تفاصيل الحادثة، وكأن الحادثة وقعت في الأمس، كل كلمةٍ تخرج منها، كانت تحمل ثقل الفقد والحنين، لشخصٍ لم يكن مُجرد زميلٍ لها، بل كان والدها وسندها.

كانت ميرا تتابع سرد الحادثة بتركيزٍ شديد، وكأنها تُلاحق الحروف خوفاً من أن تهرب منها، لينقبض قلبها بقسوة الآلام التي عاشتها ريان وهي تحمل رأس ليفار على يديها. وجهها صار شاحباً، عيناها امتلأت بدموع الحقيقة، التي حملتها طيلة عمرها، وأغرقتها في بحارها، فشعور الفقد لا يعرفه إلا من عاشه، ومن ذاق مرارة الغياب، أدرك معنى الظلمة والفراغ. بعدما حصلت ميرا أخيراً على الإجابات، قررت المضيّ قدماً، وتوجهت إلى البنك الفرعي في المدينة، وبحثت في سجلات العاملين القديمة، ثم اتجهت إلى منزل ليفار، الذي كان يقع في منتصف الغابة؛ رغم مرور عشرين عاماً، إلا أن المنزل بدا وكأنه مُتوقفٌ في مسار الزمن. توقفت ميرا أمامه، ولاحظت وجود سيارة مركونة بالقرب منها، كان المنزل يبدو مُشيداً حديثاً، لكن جدرانه الخشبية المُتهالكة كانت تشي بعقودٍ من الوحدة. نزلت من سيارتها بحذر، شعورها كان ينذر بوجود شيءٍ غير طبيعي، تقدمت بهدوء

نحو الباب، وطرقته. لم تمر لحظات قليلة حتى فُتح الباب، وظهر أمامها رجلٌ ضخم الجثة، بلحيةٍ كثيفة وشاربٍ يتدلى بشكلٍ مُلفت، كان وجهه يحمل صرامة العالم كلها، لكن قبل أن ينطق بأيّ كلمة، انطلقت رصاصة فجأةً من بين الأشجار، وأصابته في رأسه بدقةٍ قاتلة.

تجمّدت ميرا في مكانها، شلت الصدمة حركتها للحظات، لكنها سرعان ما استعادت رباطة جأشها. تناولت مُسدسها وبدأت تطلق النار بشكلٍ عشوائي نحو الأشجار المُحيطة. كانت تلهث من شدة التوتر، حملت هاتفها واتصلت فوراً بنوف، طالبةً منه الحضور بسرعة مع فريق الإسعاف؛ كانت كل ثانيةٍ تمر عليها كأنها دهر، وهي تترقب أيّ هجومٍ آخر من القاتل، الذي كان مُختبئاً بين ظلال الأشجار الكثيفة. بعد مضيّ ربع ساعة، كانت ميرا لا تزال تبحث بقلقٍ بين الأشجار عن أيّ دليلٍ يقودها إلى هوية القاتل، فجأةً سمعت صوت سيارات الشرطة وهي تقترب.

فريق الإسعاف اتجهوا فورا إلى الجثة، وتقدم نوف نحوها بقلق، ليظهر نوح بسيارته الخاصة، واتجه نحو ميرا بعينين مليئتين بالريبة والغضب، وأمسك بذراعها:

ـ أنتِ قيد الاعتقال!

حدّقت ميرا فيه بصدمة، غير قادرةٍ على تصديق ما تسمعه، صرخت في وجهه باندفاع:

- ماذا تفعل أيها الأحمق؟

بدت ملامح الحيرة على وجوه من حولها، تقدم نوف مُسرعاً وحاول تهدئة الوضع، قائلاً بحزمٍ وهو يسحب يد نوح بعيداً عن ميرا:

- دعها وشأنها.

- لديّ أوامر من جايا باعتقالها، ربما تكون القاتلة، وحتى نجد دليل براءتها، ستظل في السجن.

بلا مبالاةٍ، سحب نوح مُسدس ميرا من جرابها، ورفعه نحو أنفه ليشمه:

- ها هو دليل إدانتكِ، رائحة البارود، دليلٌ واضحٌ على أنكِ أطلقتِ النار.

صرخت ميرا بغضب، والدم يغلي في عروقها:

- أطلقت النار على المُجرم، كنت أدافع عن نفسي أيها الغبي!

بدت الصدمة واضحةً على وجوه الحاضرين، غير مصدقين ما يفعله نوح، فقد وضعها في سيارة الشرطة دون أن يظهر أيّ تعاطف. قادها إلى المركز وجرّها نحو زنزانةٍ مظلمة في الطابق السفلي، لم يكتفِ بذلك، بل عيّن شُرطياً جديداً لحراستها، ليمنع نوف ونارون من

زيارتها أو التواصل معها. مرّ يومان ثقيلان عليها، كانت تجلس على الأرض، مُنهكةً جسدياً، شعرها المُتشابك كان علامةً واضحة على مُعاناتها. ظهر جايا برفقة نوح، ووقفا خارج القضبان، حدّق بها جايا بنظرةٍ باردة وقال بصوت مليء بالاحتقار:

ـ كيف حالك الآن؟

رفعت ميرا عينيها من الأرض ونظراتها كانت كالجمر المُتقد:

ـ لماذا لا تتحدثين؟ نعلم أنكِ لستِ الفاعلة، تحققنا من الأمر، لقد خالفتِ أوامري بفتح التحقيق، ونتيجة ذلك قُتل رجلٌ بريء، ألا تشعرين بالذنب؟

وقفت ميرا ببطءٍ، وأخذت تُرتب ملابسها المُتسخة، ثم نظرت في عينيه وقالت:

ـ افتح الباب...

رد نوح بتعجرف وهو يخرج ورقةً من جيبه، وألقى بها إلى داخل الزنزانة، كمن يرمي بقايا طعام لفقيرٍ جائع:

ـ انظري إلى هذه الورقة...

التقطت ميرا الورقة وقرأتها، كانت طلب نقلٍ رسميّ باسمها من المركز، وكل ما تحتاجه هو توقيعها للرحيل، توقفت للحظة، ثم رفعت

القلم ووقعت دون أن تنطق بكلمة، ليفتح نوح لها الباب، وتسير بجانبهما باتجاه الباب دون أن تلتفت إلى الخلف. كانت مشاعرها تتأرجح في أعماقها من التعب والتوتر، خرجت من المركز، وجمعت أغراضها من منزلها، ورحلت من تلك المدينة الملعونة، متجهةً إلى العاصمة.

"الحقيقة في بعض الأحيان غريبة أكثر من الخيال"

مارك توين

الجريمة الأولى – 6 ديسمبر 2004
الساعة التاسعة صباحاً

مرّت الأيام كمرآةٍ مهشمة، سردت بشقوقها قصصاً لا تنتهي، وأحلاماً تشوهت كلوحةٍ إغريقية، رُسمت بريشة فنان في لحظاته الأخيرة؛ الليالي الطويلة، ارتطمت أعمدتها في سرج السماء، كاشفةً عن قواميس أسلافها، الذين تبعثروا كحروف الهجاء بين طيّات الكتب القديمة.

كانت العاصمة في حكم ضبابٍ كثيف، يلتف حول أعناقها ويكتم أنفاسها، كرِمال تتسلل بين أصابع الزمن المتقوسة، الذي بدأ ببلع الحياة على ضفائرها البيضاء، وحاول الانعتاق من قبضة السماء. طُرقاتها كانت تتصادم ببعضها كشبكات الأقحوان في رسمها لجذورها، تحت مصابيح الشوارع التي تنسل ضوءها خجلاً على تلك الأرصفة المحطمة كوهجٍ بشريٍ مُتعب.

مبانيها كانت كأقفاص الطيور، كتلٌ من الخرسانة العالقة بين أجسادٍ إسمنتية مُنهكة وجروحٍ غائرة لم تلتئم، تحمل أصوات ضربات المطر خلف تلك النوافذ الخشبية، التي ظهرت ملامحها من حقول الغبار المتراكم على ملامحها، وكأنها كانت تمنع الغروب من التسلل إلى جوفها وإلى كوابيس السكان المدفونة بين طبقاتها.

في ديسمبر، كانت العاصمة ترتدي ثيابها الكئيبة، وتغطي بوشاحها أبوابها المعدنية الصدئة. الأشجار العارية على جانبي الطريق تثير شهوة البرد العكر، الذي مدّ أصابعه ميتةً نحو السماء وانتشل ثنايا المصابيح المعلقة من رقابها التي كادت تهرب من ثقل الخريف، ومن رؤوس المارة المنحنية تحت مظلاتهم السوداء في وسط تلك الرطوبة القاتمة.

في صباحٍ جديد، فتحت المحلات التجارية أبوابها المعدنية، كانت تلك الأبواب مطلية بطبقاتٍ إعلانية متشققة، والمقاهي بعثرت كراسيها وطاولاتها، التي كانت أشبه بملاذاتٍ قديمةٍ آمنة، يقطنها زوارٌ ويبحثون عن الدفء بين طيّات الدُّخان التي امتزجت رحيقها المتصاعد برائحة الخمول، أما فناجين القهوة المتساقطة على الطاولات الخشبية، تعلن عن بداية صباحاتٍ بائسة، تتلاقى أحلامهم مع بقايا البن المحترق، فكل رشفةٍ من ثغر الفنجان، كانت دعوةً للاستمرار أو الهروب من لعنة النهار.

في الأفق البعيد، رفع برج ساعة القديم رأسه بين المباني العالية، عقاربه متوقفةٌ منذ زمن، وكأنه يرصد الوقت الذي مضى. كان ذلك

البرج أحد آخر المعالم الشامخة في العاصمة، رمزاً صامتاً، لحياةٍ كانت نابضة في يومٍ من الأيام.

بعد غيابها لستة أشهر، عادت ميرا إلى قسم التحقيقات الجنائية في العاصمة، عودةً كأنها صحوةٌ من سباتٍ طويل؛ العاصمة، ذلك الكيان الصاخب الذي لا ينام، كان يستقبل يومياً عشرات القضايا التي تفرز كالحمم من قلبها المزدحم، لتوزع بين أروقة المُحققين في ذلك المبنى، الذي لا تغادره أسرار الدماء والجريمة.

لم يكن هناك ذلك الظل الثقيل الذي يُلقى على امرأة بسبب مهنتها، بل كانوا يستقبلونها وكأنها أحد أعمدة العدالة الصامتة وترحب بهم المدينة من خلال ملامحها، التي لا تتغير أمام ضغوط العالم. استلمت ميرا قضايا عديدة، وتحدت متاهات الجريمة، وغاصت في دهاليز المُجرمين بحسٍ فطري، وحللت الأدلة وكأنها تفكك رموز عوالم غامضة. اقتحمت زوايا الجريمة، كرقصةٍ معقدة لا مكان فيها للخطأ، أمسكت بالعديد من المُجرمين، الذين ظلت أسماؤهم طيّ النسيان طيلة السنوات، وصارت المُحققة الأولى في ذلك المركز.

ستة أشهر مرت عليها في مركز الأمن العام وكأن الزمن قد توقف لأجلها؛ رغم كل التحديات التي واجهتها، إلا إنها كانت تؤمن أن لكل روحٍ قصة ولكل طريقٍ أسرار.

في صباحها المعتاد، استلمت ميرا قضية جديدةً، تتقطر منها رائحة الموت الثقيلة، جريمة قتلٍ بشعة، كسرٌ دفين بين جدران حي سكني خنقه الزمن.

اكتُشفت الجريمة بعدما بدأت رائحة العفن تنبعث من الجثة، فاستوقفت أنوف ثلاثة شبانٍ كانوا يمرون في ذلك الطريق، ليكشفوا عن المأساة المخفية، ويسارعوا بأخبار الشرطة المركزية. سرعان ما تجمع فريق التحقيق، وقادتهم ميرا إلى مسرح الجريمة، وعند وصولهم، وقفت تنظر إلى ذلك الحيّ، الذي بدا وكأنه كائنٌ يحتضر، متكومٌ على نفسه؛ في قلب هذا المكان الذي خانته الأيام، كان هناك منزلٌ قديم قيد الإنشاء، يتهاوى كبقايا حلمٍ لم يكتمل، وفي قبوه المظلم كأعماق الجحيم، كانت تنتظرهم تلك الغرفة الصغيرة، غرفةٌ ضاق بها الحياة حتى تحولت إلى مسرح جريمة. تقدمت ميرا مع فريقها إلى الغرفة، وكأنها تكتب فصلاً جديداً في حياتها، ليتبعها إيان بتردد، فقد كانت هذه أول قضية له مع ميرا.

كان إيان يعمل في قسم الأرشيف، وطلب رؤساءه أن يصبح مُحققاً يعاون ميرا، بالرغم من إنها ليست بحاجةٍ إلى مساعد لحل الجرائم، وافق المسؤولون على طلبه، وتم نقله تحت فترة التدريب.

كانت الغرفة مهترئةٌ ومظلمة، صارت مكبّاً للنفايات منذ أشهرٍ مضت، فالرمل كان مبعثراً في كل زاوية، وأكياس الإسمنت المتمزقة تلقي بغبارها في ذلك الهواء المتعفّن كلما دهسته قدم. الأرضية الخرسانية كانت متشققة ومبللة في بعض الأماكن، والجدران المحيطة بتلك الغرفة، كانت مغطاة بطبقاتٍ من العفن، أما العوارض الخشبية السميكة التي تدعم السقف المنخفض، كانت متآكلةٌ، وكأنها لم تمس منذ بنائها.

في منتصف الغرفة، تربّع كرسي ذو تصميمٍ كلاسيكي، بأرجل منحوتة يدوياً، كانت موضوعة في بقعة ضوء شاحبة، تتسرب عبر ثغرات السقف المتكسر، وانعكست على نصف الجثة المربوطة بذلك الكرسي، وجعلت النصف الآخر غارقاً في ظلامٍ دامس، وكأن المُجرم أعطى المُحققين طابعاً سينمائياً ساخراً.

كانت الجثة لرجُلٍ في منتصف الخمسينيات، مربوطاً بإحكامٍ على ذلك الكرسي؛ جسده كان ضخماً ومتثاقلاً فوق المقعد، ذراعاه مربوطتان

بعنفٍ خلف ظهره بحبالٍ خشنة، وقدماه مقيّدتان بإحكامٍ إلى أرجل الكرسي، أما رأسه، فقد تحول إلى كتلةٍ سوداء متفحمة، ومشوهة بشكلٍ مروع.

كانت الجمجمة متشققة بخطوطٍ عشوائية غير منتظمة، والعظام التي كانت يوماً صلبةً، بدت هشة وتتفكّك مع كل نظرة، ملامحه تلاشت بالكامل تحت طبقةٍ سميكة من الفحم، وشعره تحول إلى رمادٍ تذروه الرّياح البطيئة، أما عيناه، فقد انفجرتا بفعل الحرارة الشديدة، لتترك فراغين عميقين تنظران إلى العدم، وكأن الموت نفسه قد نسج هذه التحفة السوداء.

على يده اليسرى، كان محبس زواجه الفضي عالقاً بأطراف الأصابع وكأنه رفض مع موته، أن ينسى زواجه وعائلته، لكنها انتهت هنا على هذا الكرسي.

كان يلبس قميصاً قطنياً رمادي اللون، عليه بعض الأزرار سوداء، وبداخلها مثلثٌ معكوف باللون الأبيض، ومغطى من عند الرقبة بسائلٍ أسود جاف، أما بنطاله الأسود الطويل، كان يحمل بقعاً صغيرةً داكنة؛ هذه البقع لم تكن بفعل النار التي اشتعلت برأسه وحسب، بل كانت

أيضاً نتيجة الجلد الذي ذاب وتقطر على ملابسه، وكونت دوائر صغيرةً محترقة.

بجانب الكرسي، كانت هناك طاولةٌ صغيرة، غارقة في العفن، فوقها صحنٌ عميق ممتلئٌ بالقليل من الماء، يبدو أن القاتل قد أوقف النار بذلك الماء بعد أن أختتم حياته بهذا المصير، تاركاً وراءه مشهداً مقززاً.

وقف إيان متسمراً امام الجثة بوجهه الشاحب، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يواجه فيها منظراً وحشيا بهذا القدر، وشعر بأن معدته تنقلب، وبينما كان يحاول ابتلاع صدمته وبصوتٍ متلعثمٍ:

- يا إلهي، ما هذه البشاعة؟

نظرت إليه ميرا باستخفافٍ واضح، وكأنها قد رأت هذا المشهد آلاف المرات وفقدت التعاطف:

- هل يمكنك الخروج؟

شعر بالخجل، وكأنه طالب مدرسي، تلقى توبيخاً من معلمته، تمتم وهو يحاول الهروب من نظراتها:

- أنا آسف.

تقدمت ميرا ببرودة أعصابٍ نحو الجثة، بينما كانت ترتدي تلك القفازات البيضاء، التي تناقضت مع طبيعة الغرفة. تفحصت رأس الجثة بعنايةٍ كبيرة، وكأنها تتفحص لوحةً فنية بدلاً من رأسٍ محترق.
ناداها أحد رجال الشرطة بصوتٍ حاد:
- لدينا رسالةٌ مكتوبة على الحائط.
تمعّنت في عمق الظلام، الذي كان يحيط بنصف الغرفة الآخر، وبيدٍ واثقة أشارت إلى الطبيب الشرعي أندير ليتولى فحص الجثة؛ كان أندير في منتصف الخمسينيات، يعمل في المركز الأمن العام منذ أكثر من عشرين سنة، وما كان يميزه عن باقي الأطباء، وجهه العابس دائماً وهدوئه الغريب.
تحركت ميرا بخفةٍ نحو الحائط، وقرأت الرسالة المكتوبة بالفحم الحجري "الطفلة تبكي، الطفلة تبكي، الطفلة تنادي، ربما تناجي..."
تأمّلت كلمات الرسالة بتمعّنٍ، وشعرت بشيءٍ غريب يتسلل إلى أعماقها، ولكنها سرعان ما أخفته.
قالت بصوتٍ مرتفع وهي تعود إلى فريقها، الذين بدأوا بالفعل بفحص كل تفاصيل الغرفة، فحصاً دقيقاً:
- يبدو أن لدينا قاتلاً مرحاً، يُحب اللعب.

وضعت يدها بهدوءٍ على كتف زميلها المصور سام، شابٌّ نحيف ذو نظاراتٍ سميكة، ماهر في التقاط أدق التفاصيل للجرائم. لم تكن ميرا تثق في أيّ شيءٍ سوى صوره، وكانت من عاداتها الغريبة أن تتفحص الصور بدقة عند عودتها إلى مكتبها في المركز، بدلاً من التركيز على التفاصيل في موقع الجريمة نفسها، همست بنبرةٍ روتينية:

- تولى الأمر.

خرجت إلى الهواء الطلق، وتبعها إيان، حاول أن يبدو أكثر ثقةً هذه المرة، وكأنه يحاول استعادة شيءٍ من كرامته بعد موقفه السابق:

- هل توصلتِ لشيء؟

نظرت إليه بعينين ضيقتين:

- هل عيّنك المسؤولون لتسألني أم لتساعدني؟

رد بتوتر وهو يحاول تبرير موقفه:

- أنا حقاً آسف، هذه أول قضية لي كما تعلمين.

قالت بابتسامة وهي تقف بجوار سيارتها:

- لا بأس، سأشرح لك، القاتل أحرق رأس الضحية بمادة سائلةٍ سريعة الاشتعال، وكان هدفه الأساسي هو إخفاء هويته، ولكنه نسيّ الأزرار

على قميص الضحية، التي تحمل شعار شركة أكتيفيا للأقفال في العاصمة.

- هل حقاً لم ينتبه للأزرار؟

- أما لم ينتبه، أو تركها متقصداً.

- ولِم يترك شيئاً كهذا متقصداً؟

- اكتساب وقتٍ إضافي.

- اكتساب وقت؟

- نعم، رسالته لم تكتمل بعد، لدينا قاتلٌ متسلسل.

نظرت إلى آدم، صديقها الوحيد والمقرب إليها من بين الجميع، وأشارت إليه، بينما كان يأخذ تفاصيل من الشبان الثلاثة، تقدم نحوها:

- ثلاثة شبانٍ كانوا يتمشون على الرصيف، وشمّوا رائحةً كريهة وظنوا أنها لجثة حيوان، تحدوا بعضهم للنزول إلى الأسفل، وعندما نزل أحدهم، اكتشف الجثة وأبلغوا الشرطة.

- هل أخذت عنوانهم وأرقام هواتفهم كالعادة؟

- بالتأكيد.

في تلك اللحظات، كان أندير يتفحص الجثة بحذر، ويمرر بنظراته الخبيرة على تفاصيل الرأس المحترق، باحثاً عن أيّ علاماتٍ تكشف

عن سر القاتل الدفين، أما رجال الشرطة، فقد كانوا يبحثون في كامل الغرفة، ومن بينهم آرون، الذي كان يقف خلف الجثة، ويبحث بين الرمال المتناثرة هناك بفرشاةٍ خفيفة، حتى توقف فجأةً، بعدما وجد شيئاً غريباً برز من تحت الرمال، بدا وكأنه سنٌ من أسنان الضحية، أخبر أندير " تعال وأنظر، وجدت سناً".

أقترب منه وعيناه ثابتتان على ذلك السن، ليأخذه بين أصابعه ويحلل تفاصيله بعناية، كان ذلك السن من القواطع الأمامية، ورغم تعرضها للحرارة الشديدة، إلا إنها كانت سليمة.

اقترب من الجثة مرة أخرى وقارنها بأسنان الضحية، ليتكشف أن ذلك السن لا يعود لفك الضحية، فقد كانت أسنان الضحية سليمة وكاملة، بالرغم من تعرضها لبعض الأضرار والتآكل:

- هذا السن، لا يتطابق مع فك الجثة، وحتى أحجامهما لا يتطابقان، يبدو أنه يعود لشخصٍ آخر، أما لجثةٍ أخرى مختفيةٍ أو للقاتل نفسه.

أخذ السن ووضعه تحت عدسةٍ المكبّرة، وتفحص طبقاتها وحشوتها بعنايةٍ أكثر، ليلاحظ فراغاً كبيراً، يبدو أنه نتيجة الغرسة السنية في فك الشخص؛ الغرسة السنية هي عبارة عن برغي معدني مصنوعٍ من التيتانيوم، يُزرع في عظم الفك ليحل محل جذور الأسنان المفقودة،

ويوضع الغرسة بشكلٍ جراحي في العظم وتتيح تثبيت الأسنان بشكلٍ صحيح، إلا أن ذلك الطبيب لم يقم بعمله بدقةٍ، فقد وقع السن من أول اهتزاز. وضع السن في كيس الأدلة الشفاف، وأخبر آرون، الذي كان يتابع التفاصيل:

ـ أخبر ميرا أن تأتي إلى هنا.

خرج آرون وقاطع حديثها مع إيان:

ـ أندير يود التحدث إليكِ.

عادت ميرا إلى الدخل، وتبعها إيان كظلها. تقدمت نحو أندير، وعيناها تركزان على ذلك السن:

ـ ما هذا؟

ـ سنٌّ لضحيةٍ أخرى، أو ربما للقاتل نفسه، ولكن لا أعتقد.

ـ كيف تأكدت من ذلك؟

ـ أنه من القاطع الأمامي، وفي فك الضحية القواطع موجودة، وبما أن عليه آثار الحريق، فمن المستبعد أن يكون للقاتل نفسه، سنحتاج إلى تحليلٍ أعمق في المختبر، لنتفحص الطبقات والسوائل الراسبة عليه.

ـ إذن، لدينا أكثر من ضحية، ولهذا كان القاتل يريد كسب بعض الوقت.

سأل إيان بحيرة:

- لم قد يكلف القاتل نفسه، عناء نقل الجثة؟

تجاهلت سؤاله والتفتت إلى أندير:

- ليكن إيان بجانبك، تفحصوا الغرفة بعناية، ربما تجدون آثاراً للضحية الثانية، أما أنا سأتوجه إلى المركز مع آدم.

كان مركز الأمن العام يتألف من ستة طوابق، ولكل طابقٍ قسمان، الطابق السفلي في قسمه الأول كان مخصصاً للتشريح، يعمل فيه أندير الطبيب المختص بالفحص الأولي للجثث في مسارح الجرائم، بتناوب مع زاهير، الذي كان طبيباً مقيماً هناك، والقسم الثاني، بها غرفة تحقيق واحدة بين السجون الأربعة.

الطابق الأول كان مخصصاً للطوارئ والبلاغات الفورية، والدوريات التي تتولى الاستجابات السريعة، وتستلم البلاغات الميدانية، وتنظم دوريات الشرطة في العاصمة، والضابط الإداري المسؤول عن تلك الأقسام هو نايل، أما القسم الميداني فقد كان تحت إشراف داني. الطابق الثاني كان مخصصاً لقسم الأرشيف والسجلات، ومسؤوليتهم كانت حفظ السجلات والبلاغات، والإشراف على مستودع الأدلة الجنائية.

الطابق الثالث كان يشمل العلاقات العامة، المسؤولة عن التواصل مع الدوائر الحكومية والإعلام، والشؤون الإدارية المسؤولة عن الأمور

المالية لمركز الأمن العام، بالإضافة إلى قسمٍ صغير، كان مخصصاً لمكافحة المخدرات.

الطابق الرابع كان للتحقيقات الجنائية بإشراف غروم، وقسم الموارد البشرية، الذي يقوم بتوظيف وإدارة شؤون الموظفين، والخامس كان للتحقيقات الجنائية المستعصية تستلمه ميرا، بالإضافة إلى قسم الأمن الإلكتروني، الذي يتعامل مع الجرائم الإلكترونية والقرصنة.

أما الطابق السادس، كان مخصصاً للأمن العام والاتصالات، ويحتوي غرفة اجتماعات ضخمة، وفي سطح المبنى كانت هناك منصةٌ مخصصةٌ لطائرةٍ جوية، مجهّزة للطوارئ، كان نيل المسؤول المباشر عن جميع الأقسام وعن كامل المركز في العاصمة.

صعدت ميرا إلى غرفتها الواقعة في الطابق الخامس، التي كانت تعكس ذوقها المنظم، وكأنها مرآةٌ لعقلها التحليلي الهادئ. كان على الجدار الأيسر من غرفتها، مكتبة حائط، ترتب فيها الكتب بشكلٍ مثالي، وكأنها رمزٌ لشخصيتها المتزنة والمتعمقة، وفي وسط الغرفة وقفت طاولتها البيضاء بوقار، بتصميمها الممزوج بين الأبيض النقي والإطارات المعدنية السوداء، وعلى طرفها الأيمن كان حاسوبها المكتبي مثبتاً بقوة، وكأنه رفيق تحقيقاتها المتواصل.

أمام الطاولة، كان هناك كرسيٌّ دوار من الجلد، بتصميمٍ عصري، يوفر لها الراحة بعد أيامٍ طويلة من العمل، وفي الزاوية الغرفة، تواجدت نباتات جبلية خضراء، أوراقها تتمايل بخفةٍ، وتنبعث من بين أغصانها رائحةٌ طبيعية، وكأنها سُرقت من أحضان الطبيعة.

النافذة الزجاجية الكبيرة بحجمها الشاسع وتفاصيلها المعقدة، تطل على العاصمة بأبراجها الشاهقة وأحيائها القديمة، التي جمعت بين الماضي والحاضر.

بينما كانت أفكار الجريمة تجتاح عقلها، جلست على كرسيها أمام الحاسوب، وبدأت بالبحث عبر الإنترنت عن شركة أكتيفيا، وقرأت جميع التقارير التي كتبت عنها الصحف من قبل، وبعد بحثٍ دام قرابة ساعةٍ كاملة، طرق إيان الباب مستأذناً بالدخول:

- تفضل.. هل انتهيتم؟ أم أنك مللت من الانتظار؟

- ما زالوا يفحصون الغرفة، ولكني أتيت بالجثة إلى المشرحة، وهم الآن بانتظار الموافقة لبدء التشريح.

- حسناً، لا جديد حتى الآن..

أجاب وهو يجلس:

- طبيب التشريح يُرجّح بأن الضحية قد قُتل منذ يومين.

- يومين؟

- لكنه ليس متأكد، يجب عليه تشريح الجثة أولاً.

- اذهب وأبحث في السجلات عن بلاغات الاختفاء التي قُدِّمت إلينا قبل ثلاثة أو أربعة أيام.

مضى إيان باتجاه غرفة الأرشيف التي كان يعمل فيها سابقاً، وسأل زملاءه هناك، حتى أجابته ديانا، الشابة الطموحة التي تعمل بجدٍّ هناك:

- هناك سيدة قدّمت بلاغاً عن رجُلٍ مفقود منذ ثلاثة أيام.

أخذ قصاصة ورق من مكتبها:

- أعطيني معلومات الاتصال والعنوان لتلك السيدة.

دوّن المعلومات على تلك الورقة، وعاد إلى ميرا مرةً أخرى، لتتصل بالرقم الموجود على تلك القصاصة، وبعد عدة محاولات، ردت سيدة بصوتٍ مخنوق:

- مرحباً، أنا المُحققة ميرا من مركز التحقيق في العاصمة، هل قدّمتِ بلاغاً عن اختفاء رجُلٍ منذ ثلاثة أيام؟

ردت السيدة بعجلة:

- هل وجدتموه؟ هل هو حيّ؟ أين كان؟

- على مهلكِ سيدتي، ما كان اسمه؟ وأين كان يعمل؟ وماذا كان يرتدي قبل اختفائه؟

- ليام.. ليام.. اسمه ليام، كان يعمل في شركة أكتيفيا، و... وكان يرتدي ملابس العمل، قميصاً رمادياً، وبنطالاً أسود، هل هو حيّ أرجوك أخبريني؟

- أنا آسفة، لقد توفى، سأزورك بعد قليل وأخبرك بالتّفاصيل.

انطلقت ميرا مع آدم وسام وأربعة زملاء لها في سيارتين إلى منزل ليام، الذي كان يبعد عن مركز المدينة حوالي نصف ساعة.

توقفتا السيّارتان أمام المنزل، الذي بدا تقليدياً وباهتاً، وكأن الغبار صار جزءاً من الطلاء نفسه، كانت الحديقة الأمامية الصغيرة مهملةً ومليئةً بالأعشاب الطويلة، والأزهار الذابلة، حتى النوافذ الأمامية كانت معتمةٌ بتلك الستائر الثقيلة، تمنع أيّ ضوءٍ من التسلل إلى الداخل، وكأن المنزل، قد انسلخ تماماً عن العالم الخارجي.

فتحت لهم امرأة الباب، وسرعان ما سمعوا آهات البكاء التي كانت الجدران تحاول إخفاءها، كانت تحمل طفلاً على يديها، وترتدي ثياباً بسيطة، وكانت علامات التعب واضحةٌ على وجهها الشاحب.

بدأ ضجيج الداخل بالنفور فوراً، الفتاة التي كانت تمسك شعرها منذ نصف ساعة، كانت ابنة ليام الكبيرة، تبكي دون توقف حتى أن عينيها كانتا متورمتين من شدة البكاء على والدها.

جلست ميرا على طرف الأريكة الخضراء التي كانت على يسار غرفة الضيوف، وعيناها تلتقط تفاصيل المنزل بسرعةٍ عالية؛ كانت الأرضية الخشبية تصدر صريراً مع كل خطوة، وكأنها تبكي على طريقتها الخاصة، والجدران مغطاةً بصورٍ عائلية قديمة، أما على الطاولة بجانب الأريكة، وضعت صورة للأب مع أطفاله.

جلست المرأة على الأريكة المقابلة، وملامحها على وشك التمزُّق، وكأنها تمسك نفسها بشدة، لتمنع انهياراً آخر:

ـ كيف مات؟

كانت الفتاة هناك تبكي بحرقة، ثم انضمت إليها أختها الصغيرة على هذا الدرب، لتبكي هي الأخرى، نظرت ميرا إليهنّ، ثم وقفت:

ـ هل نستطيع الذهاب إلى غرفةٍ أكثر هدوءاً؟

أخذتها إلى الغرفة المجاورة وناولت الطفلة الصغيرة لإحدى الشرطيات، التي بدت وكأنها أمٌّ بالفعل. أغلقت الباب، وجلست على السرير، أما ميرا فقد ظلت واقفة أمام النافذة:

- من تكونين؟

- أنا خالتهم، توفيت أمهم عند الولادة، الفتاة الكبيرة اسمها بيرنا، وهي الابنة الكبرى لليام، أما بيلا، فهي ابنته الوسطى وتبلغ من العمر ثماني سنوات، والصغيرة هي روز، أصغر بناته، أرجوكِ، أخبريني... كيف مات؟

بدأت ميرا بسرد تفاصيل تلك الجريمة البشعة، وكأن كل كلمةٍ تخرج من فمها تُمزّق ما تبقى من خيوط الأمل في قلبها.

كلماتها تحفر في روحها كقصةٍ، لم تعد مجرد مأساةٍ عابرة، بل كابوساً يومياً يسكن بين أركان حياتها، ويتسلل إليها كلما غابت الوجوه. صوتها كان يرتعش بين الحين والآخر، وهي تحاول الحفاظ على رباطة جأشها، ولكن الحقيقة المرّة التي تعيشها بدأت تبتلعها ببطء.

نظراتها هائمةٌ في الفراغ، وكأنها تحاول استرجاع وجه ليام الذي صار رماداً، كان وصف رأسه المحترق كحزنٍ ممتّدٍ عبر السنين، سرعان ما تخللت مشاعرها الغرفة بأكملها، ولم تعد الدموع تكفي لتفريغ ما في قلبها.

حافظت ميرا على تعاطفها، وحاولت مواساتها، ورغم ذلك، لم تكن هوية المُحقق تفارقها، فقد كانت تتفحص كل كلمة تخرج من فمها،

باحثةً عن خيوط الحقيقة بين دموعها، التي بدأت بالنّزول بالفعل، سألت ميرا بصوتٍ خافت، يكاد أن يكون همساً:

- هل يمكنكِ أخباري بكل التفاصيل؟

تنهّدت، وكأنها تحاول جمع شتات نفسها، فلم تكن الكلمات سهلة، ولكنها عرفت أن هذه اللحظة حاسمة "يموت ليام بهذه البشاعة" قالت بصوتٍ متقطع، ثم توقفت للحظة، محاولة تهدئة نفسها:

- منذ ثلاثة أيام، لم تعد بيلا من المدرسة القريبة من هنا، لذلك خرج ليام للبحث ولم يعد هو أيضاً.

تابعت وكأن صوتها يتمزق حزناً:

- اتصل بي وأخبرني أن بيلا اختفت، وأنه سيذهب للبحث عنها. أتيت إلى هنا فور سماعي الخبر، واقترحت أن نُبلغ الشرطة، ولكنه قال "أنهم لا يستطيعون فعل شيء قبل مرور أربع وعشرين ساعة". بعد البحث، اتصل بي مجدداً، وأخبرني أنه في منطقة المصانع، ولكن الاتصال انقطع فجأةً، حاولت الاتصال به عدة مرات ولكن دون جدوى، بعد ساعة من انقطاع الاتصال، عادت بيلا لوحدها، وأخبرتنا أنها كانت في الحديقة العامة، تشتري الحلويات من سيدة، وفي يوم

التالي، أبلغنا الشرطة عن اختفائه، ليعود في النهاية جثةً مشوهة، وضحيةً لتعذيبٍ وحشي.

كانت ميرا تصغي بتركيزٍ شديد:

- هل أخبركِ بدقة مكانه؟

مسحت دموعها:

- قال إنه في منطقة المصانع، قرب محلات بيع قطع السيارات.

فتحت ميرا الباب لتنادي آدم وسام:

- اذهبا إلى منطقة المصانع، وابحثا عن سيارة ليام وفتشاها.

التفتت إليها مجدداً:

- ما هو لون السيارة ونوعها؟

- لا أعرف النوع، ولكن لونها زرقاء، تسع لأربعة أشخاص، ورقمها ينتهي بتسعة خمسة أربعة.

بعد ذهاب آدم وسام، عادت إلى مكانها، وسألت مجدداً، وهي تميل قليلاً إلى الأمام:

- هل كان لدى ليام أعداء؟ هل تعرض لتهديداتٍ من قبل؟

هزّت رأسها بالنفي:

- كان رجلاً طيباً، وليست لديه أيّ مشاكل...

توقفت عن الحديث، وهي تحمل معها شعوراً بالعجز، لتُكمل ميرا الأسئلة:

- أخبريني المزيد من التفاصيل عن الضحية.

- كان ليام في الرابعة والخمسين من عمره، عمل في شركة أكتيفيا بعد انتقاله إلى العاصمة.

- وماذا كان عمله في السابق، وأين كان؟

- كان يعمل في سجلات المدنية في آماريا، وانتقل إلى هنا منذ عشرين عاماً.

تغيرت ملامح ميرا:

- آماريا؟ ولماذا انتقل إلى العاصمة؟

- أراد حياةً أفضل لبيرنا.

بعد مضي ساعةٍ كاملة، تلقت ميرا اتصالاً من آدم "وجدنا السيارة، ولا شيء غريب فيها"، أغلقت الهاتف وتحدثت إلى المرأة مجدداً:

- سأتركك مع الأطفال، وسأحرص على وضع حارس لحمايتكم من ذلك القاتل الطليق.

- أتمنى أن تمسكوا به، وتأخذ العدالة مجراها...

ابتسمت ميرا في وجهها، وحضنتها:

- سنفعل ما بوسعنا، هل تسمحين بتشريح الجثة؟

- ليس بيدي حيلة، افعلوا ما ترونه مناسباً، للقبض على ذلك المتوحش، وإذا احتجتم إلى شيءٍ آخر اتصلوا بي.

عادت إلى غرفتها في المركز الأمن العام، مضت ساعات عليها بدون أن تشعر، كانت شاردة أمام نافذتها، وتتأمل في غزارة المطر وهي تخدش نعومة الزجاج في ذلك الليل، الذي حل مبكراً في ذلك اليوم.

تحركت بعد أن استفاقت من شرودها نحو الحائط الأيمن، الذي عُلق عليه لوحةً خشبية كبيرة ومستطيلة الشكل، عليها طبقةٌ قطنية خشنة لتغرز فيها دبابيس صغيرة، كانت مغطاةً بعدد كبير من الأدلة البصرية المرتبطة بجرائم عديدة، كانت تشمل بصمات أيدٍ، أدلة، أماكن الجرائم، ورسوماً تقريبية لأشخاصٍ مُتهمين. كانت جميع الصور المعلقة تربطها خيوطٌ قطنية حمراء، كتلك اللوحة النموذجية في غرفة المُحققين.

أمسكت بجميع الأوراق والصور ووضعتها في صندوقٍ صغيرٍ، لتتفرغ بشكلٍ كامل في قضية ليام، وتعطي تلك القضايا البسيطة لزميلها الآخر.

بعد إفراغ جميع محتويات اللوحة، كتبت بخطٍ عريض "الطفلة - القاتل" ثم أخذت جميع الصور الموضوعة على طاولتها من قبل سام، التي تتعلق بالقضية، وعلقتها على تلك اللوحة، وبدأت بالتركيز على تفاصيل جسده مرةً أخرى وخاصة تلك الرسالة التي حيرتها "الطفلة تبكي، الطفلة تبكي، الطفلة تنادي، ربما تناجي...".

بينما كانت تتمعن في الصور، رنّ هاتف مكتبها، كانت المتصلة مديرة شركة إيرِتوريا لصنع السيارات، التي تملك شهرةً واسعة في البلاد وفي نطاقٍ دولي، طلبت المديرة منها مُحققاً سرياً للكشف عن الفساد في الشركة، فقد كان الفساد ينهش في الشركة كفئرانٍ جائعة، وجعل من أرباحها تتراجع بشكلٍ كبير لذلك العام، حتى أن المستثمرين في الشركة سحبوا أسهمهم لنفس السبب. قالت ميرا لها قبل أن تغلق الهاتف "سأتولى الأمر، وسأرسل لك مُحققاً جيداً". دخل إيان إلى غرفتها بعد دقائق، ومعه التقرير النهائي:

- شرّح الطبيب الجثة، ليام قُتل قبل يومين الساعة العاشرة صباحاً، نتيجة دهن رأسه بالبنزين واشعاله، ولكن المفاجأة ليست هناك...

قاطعته بلهفةٍ:

- ماذا تقصد؟

- هناك آثارٌ واضحة لجثةٍ أُخرى، تم نقلها من هناك.

"لا يمكن للظلام أن يطرد الظلام،

الضوء وحده يستطيع ذلك"

مارتن لوثر كينغ

الجريمة الثانية – 10 ديسمبر 2004

الساعة العاشرة صباحاً

أطلق الزمن صرخته كنحيب طائرٍ منفي من عشه المهدم، وتائه في زخم الأطلال البائدة، التي كشفت عن أعماقها وأسرارها المخبأة في سدى رحلته تلك.

في لحظة التفاف الماضي حول نفسه، غزل خيوطاً متقطعة من ذاكرته المتهالكة، كأنه يحاول بعنادٍ أن يبعث من الركام مجدداً في قفزةٍ واحدة، مؤجّلاً الموت في خفاياه.

العاصمة ذاتها لا تهدأ، تعج بالحركة على مدار الساعة، وكأنها كائنٌ حيٌّ لا يعرف الرّاحة، الشوارع الممطرة تصرعها ضجيج السيارات السريعة، وتحرك كيانها الثابت منذ قدومها، أما المباني الشاهقة التي كادت أن تُلامس السماء، عصرت تلك الأزقة الضيقة التي تخفي في جعبتها أسراراً، ظلت عالقة في ظلامها الدامس.

القلق كان يلف أجواء مركز التحقيق بسبب تلك الجريمة، التي تركت أثراً لا يمحى، ليس فقط للضحية، بل لكل من يقترب منها، فلم تكن مجرد جريمةٍ عابرة، بل كانت بدايةً لسلسلة معقدة من الأسرار والخداع.

في صباح يوم الجمعة، كانت ميرا غارقة في تفاصيل القضية، مثلما يغرق نورسٌ في عمق البحار باحثاً عن سمكةٍ لا يجدها. الأيام الأربعة

الماضية، ألقت ثقلاً على أكتافها، تفكر وتبحث بلا كلل، وتحاول ربط الخيوط ببعضها، للوصول إلى القاتل ولكن دون جدوى، وكأنها تبحث في عمق الظلام عن نهايته.

بينما كانت ميرا تتمعن في الصور كالعادة، رنّ هاتفها المكتبي فجأة، اقتربت ورفعت السماعة، ليحادثها داني، المُحقق الميداني؛ رجُلٌ في منتصف الثلاثينيات، بملامح قوية، وعينان سوداوان مليئتان بالدهاء السخرية، وكأن السخرية هو ثيابه الوحيد الذي يرتديه طيلة حياته.

كان يُعرف بسرعته في الوصول إلى مسارح الجريمة، وشغفه بالميدان بعيداً عن المكاتب وأوراق التحقيق، ورغم مهارته في جمع المعلومات من الموقع، إلا أنه لم يُحب الانخراط في التحقيقات المعقدة، تاركاً ذلك لميرا التي تبرع في تحقيقاتها. بصوتٍ صباحي هادئ، قالت:

- ماذا هناك يا داني؟

- وجدت جثتكِ الثانية... وخمني ماذا؟ القاتل ترك لكِ رسالةً أخرى.

كان ذلك الاتصال بمثابة المفتاح الوحيد، الذي سيفتح أقفال القضية. كانت تعرف أن الرسالة الثانية للقاتل قد تكون قطعةً ناقصة من حلقتها المفقودة.

طوال تلك الأيام، لم تفارقها صورة الجثة الثانية، فقد كانت تتخيل تفاصيلها في كل لحظة، وتثير لنفسها تساؤلات لا إجابات لها. بسرعةٍ جمعت فريقها المعتاد، وقادتهم ميرا إلى ذلك الحيّ العتيق، الذي احتضنت أبنيته القديمة الحكايات الغامضة، عند وصولهم إلى الشارع الضيق، كانت الفوضى تعم المكان، مئاتٌ من الأشخاص احتشدوا على جانبي الطريق، يتدافعون برؤوسهم نحو الأمام ليشبعوا فضولهم ويروا ما يجري.

قفزت ميرا فوق الشريط الأصفر الذي يمنع الاقتراب، وسارت نحو الزقاق الصغير، وبعد بضعة أمتار، وصلت إلى السلم الحديدي الذي يفصل بين الطوابق من خلف المبنى.

سارت بجانب رجال الشرطة، الذين كانوا يتشاورون فيما بينهم لرفع الجثة من حاوية القمامة، وقرأت "الطفلة تغني.." خلف ذلك السلم، الذي كان يحجب الرسالة بالكامل، سارت بضع أمتار أخرى، وتجمّدت في مكانها للحظات "الطفلة تغني، الطفلة صاحت، حل الليل، عادت ونامت..."، كانت رسالة القاتل الثانية، وهذه المرة كانت مكتوبةً بقطعة طباشيرٍ حمراء.

بعدما دون آدم الرسالة على دفتره، عادت إلى منتصف الشارع، لترى داني قرب سيارته، يبحث عن علبة السجائر الخاصة به، اقتربت منه:

- عن ماذا تبحث؟

بينما كان يستمر بالبحث، رد بسخرية:

- عن ربطة شعرك، فأنا متأكد أنني أضعتها هنا، ها هي..

التفت إليها وأشعل سيجارة:

- أخبرتك، إنها هنا.

- توقف عن السخرية، وأخبرني التفاصيل.

- أتعلمين ماذا تمنيت في يوم ميلادي قبل شهر؟

- ماذا؟

- أن أراك بدون ربطة الحصان هذه، تمنيت أن أراك وشعرك يرقص مع الهواء، لأشعل سيجارتي مرتاح البال.

ضحكت ميرا وردت:

- حسناً، كفاك مزاحاً، أخبرني التفاصيل.

- عمال النظافة اكتشفوا الجثة بالصدفة أثناء إفراغ القمامة، وكما تعلمين، الجمعة هو يوم جمع القمامة العالمي.

- توقف أيها الأحمق، وكن جدياً لمرة واحدة.

رد، وهو يهمُّ بالمغادرة:

- عليّ الذهاب، لديّ بلاغ سرقة في متحف المدينة، وكأن اللصوص قد أعجبوا بالفن وتحولوا إلى نقاد فنيين، هل تحتاجين إلى شيء آخر قبل أن أعطيك محاضرة بالمسروقات؟

ضحكت مجدداً:

- وفر المحاضرات للصوص بعد الإمساك بهم.

بينما كان آدم يدون تفاصيل الحادثة من عمال النظافة، انضمت إليهم ميرا.

في حوالي الساعة الثامنة والنصف صباحاً، وصل عمال النظافة إلى الحي، بعد أن قطعوا جزءاً من جولتهم اليومية، كانوا يتحركون بوتيرةٍ روتينية، يتبادلون الأحاديث القصيرة، وأعينهم موجهة نحو الحاويات الممتلئة.

كان كل شيء عادياً كأي يوم، حتى أقترب أحد العمال من الحاوية الصفراء الكبيرة في ذلك الزقاق الضيق، وبدأ برفع الأكياس السوداء الثقيلة واحداً تلو الآخر، واعطائه لزملائه ليضعوها في الشاحنة، ومع كل كيس، كانت رائحة القمامة المعتادة تتسرب حولهم مع رائحةٍ غريبة لم يتعودوا عليها، وبعد استمراره برفع الأكياس، لمح العامل

الشاب شيئاً غير معتادٍ عليه، قطعةٌ من نسيجٍ بشري، يدٌ بيضاء شاحبة، تبرز بين أكوام القمامة، تراجع إلى الخلف فجأةً، والدهشة مرسومة على وجهه، وسقط الكيس من يده بقوة.

نظر إلى زملائه وقد أصابه ذهولٌ شديد "يا إلهي... إنها يد بشرية!" وقف زملاؤه مصدومين لوهلة، غير قادرين على الاستيعاب، ليحاول أحد العمال، الأكبر سناً التقدم، ولكن اضطراب صورة الأصابع المنتفخة، كانت كافياً لأبعاده مجدداً، فلم يكن هذا ما توقعوه في عملهم الصباحي المعتاد.

بهدوءٍ مخيف، أخرج العامل الثالث هاتفه، واتصل بالشرطة على رقم الطوارئ. بصوتٍ مضطرب "وجدنا جثة في الحاوية".

عادت ميرا إلى مقدمة الزقاق بعد سماعها للحادثة، لتتابع رجال الشرطة بينما يتجمعون حول الحاوية؛ انحنى أحدهم فوقها، وحاول تثبيت قبضته على حافتها، مدّ يده بحذر وأمسك بأحد أطراف الجثة، ومن ثم تعاون مع زميله لرفع الجسد ببطء وحذر، محاولين الحفاظ على كل جزءٍ منها في مكانه، لتجنب تدمير أيّ أدلةٍ محتملة.

كانت رائحة الجثة تعبق في الهواء، وتختلط مع روائح القمامة الكريهة.

مشهد الجثة وهي تخرج من الحاوية كان صادماً للجميع، ملابس الضحية، كانت ملتصقة بالجسد بسبب الرطوبة، والرأس كان محترقاً وملفوفاً بكيسٍ شفاف، والقمامة العالقة في ثيابه، تسقط بحركة الأيادي وتعود إلى الحاوية مجدداً.

كانت ميرا تراقب كل هذا بعينين مثقلتين، تعلم أن هذه الجريمة أيضاً ليست الأخيرة، وكانت متأكدة بأن القاتل سيستمر بالقتل من خلال رسالته الواضحة، وجعل من الضحايا تماثيل بشعة، تترسخ في ذاكرة الجميع.

في وسط هذه الفوضى، تقدمت ميرا نحو الرصيف على مدخل الزقاق، كانت عيناها تمسحان المكان بعناية، وخصوصاً المحتشدين خلف تلك الأشرطة الصفراء، استطاعت بصعوبة سماع الهمسات المتقطعة من الحشود، وكأن المدينة بأكملها كانت تنتظر ما سيكتشفونه.

تقدم إليها إيان بعينين بائستين، فهو لم يجرؤ على الاقتراب من مسرح الجريمة، واكتفى بالمشاهدة من بعيد، لتقول ميرا له:

- يجب أن تعود لوظيفتك السابقة، فقلبك الرقيق لا يحتمل كل هذه المناظر.

- كنت أود التعلم منكِ دقة الملاحظة في جرائمكِ، فخلال ستة أشهر أصبحتِ المُحققة الشهيرة في كامل المركز، كنت أطمح لذلك أيضاً، ولكن يبدو أنني غير محظوظ، فمنذ انضمامي لمساعدتكِ، بدأت الجرائم الوحشية تتزايد.

- لو أردت أن تصبح مُحققاً، عليك التأقلم.

نظر إلى الجثة بقلبٍ ضعيف من مكانه:

كيف يمكن لمُجرمٍ أن يتجرد من إنسانيته بهذا الشكل؟

- لكل مُجرم دوافعه، الانتقام، اضطرابٌ نفسي، وغيرها من الأسباب يدفعه لهذه الأفعال.

- وهل تعتقدين أن هذا المُجرم لديه نفس الدوافع؟

نظرت إلى رجال الشرطة وهم يضعون الجثة على سريرٍ متنقل وقالت:

- لست متأكدة، ولكن الرسائل الذي يتركها تشير إلى قصة.

- لم أفهم!

- من يقرأ رسائل القاتل، سيقول إنه يتصرف بجنونٍ بلا شك، ولكن لو تمعن في الرسائل، سيكشف أن وراءها قصة.

أخرج دفتره الصغير، الممتلئ بالملاحظات:

- "الطفلة تبكي، الطفلة تبكي، الطفلة تنادي، ربما تناجي..".

أكملت ميرا:

- "الطفلة تغني، الطفلة صاحت، حل الليل، عادت ونامت..."

- عندما أسمع تلك الكلمات، أشعر بشعورٍ غريب جداً.

- وأنا أشعر بالشيء ذاته، رسائله تجعلني أفقد التركيز على التفاصيل.

تحركت نحو سيارتها، لتجهز نفسها للرحيل، سألها إيان:

- هل تعتقدين أن المُجرم ينتقم لابنته؟

- لا أعتقد، لقد بحثت في سجلات جرائم الأطفال قبل عامٍ وللآن، لم أجد سوى جريمتين وهما مستبعدتان في هذه القضية، فقد سافرت العائلتان إلى دولٍ أخرى دون عودة، وهم لا يملكون أقارب في العاصمة.

- كيف لم يخطر في بالي من قبل، أن أبحث في السجلات!

ابتسمت ميرا بينما كان قلبها يعتصر تحت قميصها من ثقل القضيتين اللتين لم تفهم معالمها بعد:

- عاطفتك تغلب على ذكائك يا إيان، بدلاً من أن تحلل التفاصيل، انشغلت بالجثة نفسها.

فتح إيان باب السيارة لها بأدب:

- معك حق، عليّ التغلب على مشاعري.
- شكراً، دعنا نذهب إلى المشرحة.

بعد ربع ساعة من القيادة، التي ملأها الأحاديث المتفرقة بينهما، ليتعرفا على بعضهما البعض، وصلا أخيراً عند الباب الأمامي، الذي كان أشبه بغلاف رواية بائسة.

دخلا إلى المشرحة، وقد أحاطا بصمتٍ ثقيل، لا يكسره سوى وقع خطواتهما الخافتة على تلك الأدراج، التي كانت تصدح في فراغ المكان، كأنها همسات الموت ذاته.

كان الهواء مشبعاً برائحة التعقيم الحادة والدماء المتخثرة بشكل متناقض. البرودة في المشرحة كانت تتسرب إلى العظام، وتجمد الأحاسيس والأعصاب، وتجعل الدّاخلين يشعرون وكأنهم قد انتقلوا إلى مكانٍ آخر بين الحياة والموت.

كانت جدران المشرحة مغطاة ببلاطٍ باهت، أقرب إلى الرمادي الميت، وكانت تعكس إضاءةً زرقاء باردة تتوزع فوق المكان. على يمين الغرفة، اصطفت برادات الموتى في نظامٍ دقيق، مثل صفوف الجنود المنتظرين أوامرهم الأخيرة، أبوابها الفولاذية ذات السطح اللامع،

أشبه بتوابيتٍ مصفوفة بترتيبٍ عسكري، وكل بابٍ يحمل رقماً صغيراً، تشير إلى الجثة التي تنتظر تفسيراً لموتها.

الجدران المقابلة كانت تزينها خزائن معدنية، تكشف عن أدواتٍ طبية مرتبة، أما على الطاولة الجانبية، كانت هناك صينيةٌ معدنية تضم أدوات التشريح الحادة واللامعة، مصفوفةً بعناية غير إنسانية، وجاهزةً للغوص في أعماق الجثث، كتلك الأدوات التي تنزع الحقيقة من جسدٍ ضعيف.

كان في قلب الغرفة سريران ناصعان كالنقاء الأخير، وعلى أحداهما، جثةٌ مغطاة بالكامل، بشرشفٍ أخضر اللون، يتدلى من حواف السرير بترتيبٍ غير مقصود، وكأن الموت رتبها بنفسه؛ وعلى سرير الآخر وضِعت فوقه الضحية الثانية.

تقدم الطبيب المقيم هناك زاهير، بوجهٍ متحجر، خالٍ من الحياة، ارتدى قفّازاته المطاطية ونظاراته السميكة، وانحنى فوق الجثة بحركةٍ مدروسة، ليتفحص الجلد المتفحم ويقلبه، وكأنه يسابق الزمن لاستخراج الأدلة.

كانت ميرا تراقب المشهد باهتمام، دون أن ترف لها جفن، بينما إيان لم يتحمل النظر وعاد إلى الخارج. بعد مرور نصف ساعة أخبرها الطبيب وهو يواصل عمله:

- نفس الأعراض السابقة، يبدو أن الجثتين تعودان إلى نفس القاتل، سأحدد موعد الوفاة بعد التشريح.

- حسناً شكراً لك.

خرجت إلى الخارج، لتجد إيان جالساً أمام السيارة، بدا كأنه يشعر بالضياع:

- ماذا تفعل؟ لماذا لم تجلس في السيارة؟

- المفاتيح معك، ولم أشأ العود إلى الداخل.

- أنت أحمق بالفعل، سأكتب تقريراً لنيل كي يعيدك إلى الأرشيف.

وقف خائفاً:

- أرجوك لا تفعلي، أنا ما زلت في فترة التدريب.

نظرت إليه ميرا بشيءٍ من الحزم:

- آسفة يا إيان، لكنك لا تصلح أن تكون مُحققاً بهذا القلب الضعيف.

- أحتاج فقط إلى الوقت.

- لم لا تعمل مع داني؟

أخفض عيناه بخجل:

- أريد العمل معكِ فقط، وأريد أن أتعلم منكِ.

- غريبٌ أمرك، لقد تفوقت على الجميع في دراستك، ومع ذلك تريد أن تصبح مُحققاً، بالرغم من أنك تستطيع إدارة قسم الأرشيف بشهادتك العالية.

- لا أُحب العمل الروتيني، وأشعر أن لديّ ما يؤهلني لأصبح مُحققاً ناجحاً في المستقبل.

- سنتحدث بشأنك في الغد.

انطلقت ميرا بسيارتها نحو منزلها، الواقع في أطراف العاصمة قرب محطة القطار المركزية. كان المنزل في مبنى سكني مكون من خمس طوابق، ولكل طابق، منزلان وشرفتان.

منذ أن انتقلت ميرا إلى هذا المبنى قبل عام، لم تقترب من جيرانها، ولا هم كانوا يعرفون عنها شيئاً سوى اسمها المكتوب على جرس الباب وصندوق البريد.

تحسست مفاتيحها في حقيبة يديها وفتحت الباب، لتدخل إلى غرفة الاستقبال، التي صممتها بنفسها؛ الجدران كانت مطليةً باللون السكّري

الفاتح، تزينها إطاراتٌ بيضاء معلقة في سقف الغرفة، تتوزع بداخلها مصابيح صغيرة، مثبتة بشكلٍ مثالي.

الأثاث كان يتألف من أريكةٍ رمادية، عليها وسادات متنوعة الألوان، وطاولةٌ مسطحة عليها مزهرية صناعية، وفي رفها السفلي، كانت هناك قطعة دائرية من القماش الداكن ودفترٍ صغير.

كانت أمام الطاولة تلفازٌ كبير يعرض القنوات الإخبارية، موضوعٌ على طاولةٍ فضية تحتوي على رفوفٍ سفلية لتخزين الأجهزة والكتب.

مضت إلى غرفتها لتجد كندا أمامها:

- مرحباً...

كانت كندا تعمل بدوامٍ جزئي عند ميرا منذ انتقالها إلى ذلك الحي، وتعتني بوالدتها المريضة، وتساعدها في تناول أدويتها، فقد كان حلمها أن تكمل تعليمها وتصبح ممرضةً معتمدة، ورغم ضغوط الدراسة والتحديات، إلا إنها كانت تجد الوقت المناسب للعمل.

- أهلاً كندا، كيف كان يومكِ؟

- مثل العادة، سأستعد للذهاب الآن.

بعد رحيلها، دخلت ميرا إلى غرفة والدتها المريضة، للتأمل تفاصيلها المعتادة بكل دقة، وكأنها تراها لأول مرة.

كانت والدتها المسنة تجلس بهدوء على كرسيها المتحرك، وعيناها الزرقاوان تلمعان بلطف خلف نظاراتِها، وتبتسم برقة تحت تلك التجاعيد العميقة، التي نقشها الزمن على وجهها.

كانت ترتدي فستاناً أزرق داكناً، وتضع قدميها براحة على دعامات الكرسي المغطى ببطانية صغيرة، لتمنحها الدفء في مواجهة برودة الجو، أما يداها الممتلئتان بعلامات العمر الطويل، فقد استقرتا على جوانب الكرسي، وكأنها تستجمع في صمت، لحظات أيامها المتبقية، قالت بابتسامة:

- كم أنت جميلة، هل أنتِ الملاك الذي يتحدثون عنه؟

امتلأت عيناها بالدموع دون أن تنهمر، جلست أمامها كالعادة وقبلت يديها، وفردت شعرها على كاحلها:

- هل أنت ضائعة، أمكِ ستكون حزينة.

منذ سنوات طويلة، تعرضت والدتها لصدمةٍ شديدة أفقدتها الذاكرة وعرضتها للشلل، وكلما تلمح ميرا تكرر نفس العبارات "كم أنتِ جميلة، هل أنتِ الملاك الذي يتحدثون عنه؟"، وكأنها تشعر أن ميرا هي جزء من جسدها، لتواسيها ميرا "نعم أنا هي، وأنتِ أمي". كانت

تجلس أمامها لساعات، وقلبها يتمزق عليها في كل مرة، تتبادل معها ذلك الحديث المتكرر دون أن تمل منها.

بعد أن غفت والدتها على الكرسي، راحت إلى غرفتها؛ كانت جدران الغرفة مزينة بلوحات فنية، ومرايا مستديرة بإطاراتٍ ذهبية، أمام أحداها، طاولةٌ لمستحضرات التجميل.

سريرها الكبير ذو هيكل خشبي توسط الغرفة، برز بشكلٍ جميل مع الفراش الأبيض النقي، أما بجانبيه، طاولتان خشبيتان بأرجُلٍ سوداء، استُخدمت إحداهما كمكانٍ لوضع الكتب، وصورة صغيرة، ضمّ لحظاتٍ خاصة، أما الطاولة الأخرى كانت عليها مصباحٌ خافت الإضاءة، ذو قاعدة سيراميكية بيضاء، وبجانبها كوبٌ من القهوة، تُرك بارداً بلا روح.

كانت النوافذ الكبيرة مغطاة بستائر شفافة، تسمح بدخول ضوء النهار النّاعم، وبجوارها كانت نباتات "ديفنباخيا" تتمايل برقةٍ مع النسمة العليلة والباردة التي تتسلل من النافذة.

في صباح اليوم التالي، عند السابعة والنصف، مضت إلى المركز، بعدما قبلت والدتها واستقبلت كندا، وعندما وصلت، تفاجأت بالفوضى

العارمة على طاولتها الخاصة، من أوراقٍ متناثرة، وصورٍ التقطت حديثاً للجريمة الثانية.

سارت نحو طاولتها والتقطت جميع الصور وعادت بها إلى لوحتها، لتعلقها عليها بترتيبٍ مثالي، وجمعت جميع الأوراق المتناثرة ورتبتها على طاولتها، ومن بين تلك الأوراق، كان التقرير النهائي من طبيب التّشريح، الذي يؤكد التشابه بالتوقيت والطريقة لكلتي الجريمتين.

طرق آدم باب غرفتها:

- صباح الخير.

- صباح الخير آدم، هل لديك جديد؟

- لا، فالتقرير النهائي على طاولتكِ بالفعل.

نخر ذلك السؤال تفكيرها، كدودة تفاح حية لا تتوقف:

- هل لديك فكرة، لماذا قد يأخذ القاتل عناء نقل الجثة إلى مكانٍ آخر؟

- لا أعلم، بماذا تفكرين؟

- احتمال الأول هو كسب الوقت، وهذا مستبعد، فلو أراد كسب الوقت حقاً، لدفن الجثتين في أماكن صعبة العثور عليها.

- بالفعل.

- احتمال الثاني وهو الأكبر، هو أنه يريد إيصال رسالة معينة من خلال المكان والجثث، ورسالته دليلٌ على ذلك.

- لكن ليس هناك رابط بين المكانين!

- هل تفقدت سجلات العقارات في كلتي المكانين كما أخبرتك؟

- نعم، ولم أجد شيئاً مريباً أو مشتركاً بين مالكي العقارات، كتبت كل شيء في التقرير.

- لم أقرأ التقرير بعد، فقد وصلت منذ قليل، ماذا عن بلاغات المفقودين؟ وهوية الضحية؟

- ليس هناك بلاغات سوى لعدة أشخاص، وهي غير مهمة، فقد تم سحب البلاغات بعدما عادوا، ولم نتعرف إلى هوية الشخص الثاني.

- يبدو أن الضحية الثانية كان يعيش بمفرده، وليس هناك أحدٌ يهتم به.

- حتى أنه لا يملك أيّ دليل على هويته.

عادت ميرا إلى خلف الطاولة:

أخبرني عن البلاغات التي قُدِّمت من شهر ولحد الآن.

حمل آدم تقريره، وقلب صفحاته ليصل إلى البلاغات:

- هناك بلاغ عن اختفاء طفلٍ في الرابعة عشر تبين أنه كان عند أصدقائه، وبلاغ عن امرأة مسنة ضاعت في المدينة، وبلاغ آخر عن

مريض هرب من مستشفى الأمراض العقلية ثم عاد من تلقاء نفسه، وبلاغ أخير عن طفل...

- توقف، توقف... أعد ما قلته عن المريض.

- مريض هرب من مشفى الأمراض العقلية وعاد من تلقاء نفسه بعد أربعة أيام، هل تشكين في شيء؟

- متى اختفى؟ وأين كان خلال تلك الأيام؟

- اختفى قبل عشرين يوماً، ولا أحد يعلم أين كان.

- لديّ إحساسٌ غريب.

- لكنه هرب منذ عشرين يوماً وعاد بعد أربعة أيام، أي قبل الجريمة بعشرة أيام.

- أعلم ذلك، ولكن الرسالة الثانية كانت قديمة، حتى إن المطر أزال جزءاً منها، سأتصل بالمشفى لأتأكد أين كان.

اتصلت ميرا بالمشفى، ولكن لم يكن هناك استجابة، ليقول آدم:

- لا أعلم لماذا تشغلين بالك بذلك المجنون؟ فمن الواضح أن المجرم الذي نبحث عنه ذكي جداً، حتى أنه لم يترك أيّ أثر خلفه. وقفت ميرا على قدميها، لتمشي صوب لوحة التحقيق المعلقة:

- ظلال المجرمين لا تظهر، إلا حين سطوع شمس الحقيقة.

- لم أفهم!

- أغلب المجرمين لديهم اضطراباتٌ نفسية يا آدم، هل لديك تفاصيل المريض؟

- لا لم أكتبه لعدم الضرورة.

طُرق الباب مجدداً، ودخل إيان إلى الغرفة وجلس أمام آدم:

- صباح الخير، هل هناك شيءٌ جديد في القضية؟

نظرت إليه ميرا باستخفاف:

- لدينا حديثٌ طويل، ولكن ليس الآن.

شعر بالخجل، لتلتف ميرا إلى آدم:

- من أستلم البلاغ؟

- داني.

- اتصل به فوراً.

بدأ آدم الاتصال بداني، أما إيان فقد كان جالساً على كرسيه دون أن يفهم ما يحدث، ولم يكن يتجرأ أن يسأل أيضاً، وكأنه تلميذٌ هادئ في صف يعجُّ بالصخب، رد داني بمزاحٍ كعادته وبصوتٍ أنثوي:

- أهلاً يا عزيزي، هل افتقدتني؟

- كن جدياً ولو لمرة واحدة.

ـ جسدي لا يتحمل.

ـ جسدك؟

ـ لو صرت جدياً، سيتحسس جسدي.

ـ كم أنت تافه وسخيف، أخبرني الآن، هل استلمت بلاغاً عن هروب مريضٍ من مشفى الأمراض العقلية؟

ضحك وقال:

ـ لماذا؟ هل كلفتك تلك الحمقاء بهذه المهمة؟

ردت ميرا عليه:

ـ تلك الحمقاء تسمعك، جاوب فقط على السؤال.

شعر داني بخجل، وقال بصوتٍ عسكري:

ـ أنا آسف يا سيدتي، أرجو إلا تعاقبيني.

ـ يا إلهي، متى ستكبُر؟

ـ لحظة سأكبُر وأعود إليكِ.

عطس داني وأكمل:

ـ لم تسألون عنه؟

ـ أجب فقط.

- بعد الإبلاغ عن اختفائه، عاد بعد أربعة أيام من تلقاء نفسه، والتقيت به هناك.

- ألم تسأل عن مكانه؟

- لا، هل صرتِ تهتمين بالمجانين الآن؟

- نعم، ولكنني نسيت الاهتمام بك.. صف لي المريض.

- كان رجُلاً أربعيني، بصحةٍ جيدة، وبنيته كانت ضخمة.. مثلي.

- هل هناك شيء لفت انتباهك؟

- نعم، كان مجنوناً، يمسك أقلاماً بيده اليُمنى، ويلعب بشعره الأبيض في يد الأخرى، مثلما تفعلين أحياناً، كان يشبهكِ بكل شيء. حملت ميرا الهاتف وقالت بلهجة تهديد:

- سأتفرغ لك فيما بعد.

بعدما أغلقت ميرا الهاتف، تبدد الجو الكئيب والجاد في الغرفة قليلاً، بسبب مزاح داني، ولكن لم تمر سوى عشر دقائق حتى عادت الأجواء إلى طبيعتها المشحونة بالترقب، فقد دخل نيل، مسؤولهم المباشر، الغرفة دون استئذان؛ رجُلٌ ضخم البنية، يملك لحية مهذبة وشاربٍ أملس يتناسق مع لحيته بشكلٍ مثالي، ويرتدي طقماً رسمياً أنيقاً يلائم مكانته كمسؤول عن المُحققين ومركز الأمن العام في العاصمة.

عندما دخل، وقف الجميع في استعدادٍ تام احتراماً له ولمكانته، تقدم إليهم وألقى بصحيفة كيتارسا اليومية على الطاولة بغضب وقال:

- ما هذا؟

تفاجأت ميرا بتصرفه، وحملت الصحيفة، لتقرأ العنوان البارز على الصفحة الأولى "جريمة مروعة في الأزقة، قاتل غامض يترك رسالته بين النفايات" نظرت إلى آدم بغضب وقالت:

- هل كان هناك صحفيون بين الحشود؟

- لا، حرصت على عدم السماح لأيّ منهم بالاقتراب.

- كيف وصلهم الخبر إذن؟ يا إلهي... عمال النظافة، يبدو أنهم تحدثوا للصحافة.

أخذ نيل نفساً طويلاً، وقال بلغةٍ صارمة ولكنها هادئة:

- أرجو ألا يتكرر هذا الموقف، وإلا ستتم معاقبتكم، هل وصلتم إلى شيء؟

- نحاول جاهدين.

- أنا أثق بكِ وبذكائكِ ميرا، ولكن لا تخيبي ظني، أريد التفاصيل في أقرب وقت.

- ثقتك في محلها، سأخبرك بكل شيء عندما أنتهي.

- جيد، بالتوفيق.

خرج نيل من الغرفة، وعندها تنفس الجميع بعمق وعادوا للجلوس على كراسيهم. قالت ميرا لآدم:

- ليس لدينا شيء لنفعله، جهز نفسك.

نطق إيان أخيراً بعد صمته الطويل:

- إلى أين؟

ردت ميرا عليه بتهكّم:

- إلى مشفى الأمراض العقلية، هل تود المجيء؟ أم تخاف من المرضى أيضاً؟

أحمرّ وجهه:

- أرجوكِ، أعطني فرصةً أخرى.

قال آدم متسائلاً:

- ماذا يحدث بينكما؟

- لا شيء، ولكن هذه فرصتك الأخيرة.

ركب الثلاثة السيارة وانطلقوا نحو جبل أتوريا الضخم خارج العاصمة، دامت رحلتهم لساعتين على طريقٍ جبلي متعرّج دون توقف، وفي الطريق مروا على قريتين كانتا في منتصف الجبل نفسه،

فقد كانت تلك القرى معروفةً في العاصمة بسكانها الأغنياء. كانت القرية الأولى إيتيل تتكون من عشر منازل كبيرة، وأمام كل منزل سيارة فاخرة، والقرية الثانية زولا كانت قرية سياحية مميزة، وتُعرف بمنازلها الخشبية في وسط الطبيعة، وكانت تبعد عن إيتيل قرابة نصف ساعة. بعد خروجهم من قرية زولا بساعة كاملة، وصلوا أخيراً إلى المشفى، الذي كان يترأس الجبل.

جدرانه الإسمنتية كانت متآكلة وظهرت عليه علامات الإهمال الطويل، نوافذه المستطيلة والمصفوفة بعنايةٍ مع قضبانه الحديدية القوية على طول المبنى، كانت تشبه أعيناً ثابتة، تراقب المكان بصمت أبدي. كانت الغابات الكثيفة تغطي سفوح الجبل، أشجارها تتداخل مع بعضها، ولا تسمح للضّوء بالتّسلل إلى قعرها. قال إيان بينما كان ينظر إلى أسفل الجبل من خلال نافذة السيارة:

- يا إلهي، لو وقع أحد هنا سيموت فوراً..

ضحكت ميرا وآدم معاً على تعليق إيان، الذي كان يعاني من خوفٍ واضح من المرتفعات، وصلت السيارة إلى مدخل المشفى، وتقدم الحارس، ليسألهم عن سبب قدومهم. أظهرت ميرا شارة المُحققة وقالت:

- أنا المُحققة ميرا، ونحن هنا للتحقيق في أمرٍ معين.

أومأ الحارس برأسه وفتح البوابة، ثم ضغط على زرٍّ بجوار نافذته، لينبه المسؤولين بقدوم الزوار. توقفت السيارة بالقرب من المدخل الرئيسي، وتقدمت نحوهم كاترين:

- أهلاً بكم، أنا الطبيبة كاترين، كيف يمكنني مساعدتكم؟

صافحتها ميرا بيدين ناعمتين:

- أنا المُحققة ميرا، أتيت إلى هنا للاستفسار عن هروب أحد مرضاكم قبل عشرين يوماً.

تغيرت ملامح وجهها على الفور:

- هل تقصدين راسيل؟ تفضلوا إلى الداخل لنتحدث في مكتب المدير.

دخل الجميع إلى غرفة المدير التقليدية، وجلسوا على كراسٍ بلاستيكية خفيفة ومزودة بقطع قماشية لتمنحهم قليلاً من الراحة.

جلبت كاترين القهوة وجلست معهم وهي متوترة بشدة، أما ميرا فقد حاولت الحفاظ على هدوءها، قالت بينما كانت تحمل الفنجان:

- حسناً، أخبريني عن راسيل.

- أنا آسفة.. لكنه هرب مجدداً.

وقعت ميرا فنجانها على الطاولة من الصدمة، حتى أن آدم وإيان بدا عليهما الاستغراب:

- متى؟ ولماذا لم تبلغوا عن هروبه مرة أخرى؟

تقدمت كاترين بسرعة لتمسح الطاولة، أوقفتها ميرا، وأخذت منها المناديل الورقية:

- سأمسحها بنفسي، أنا آسفة.

- لا عليكِ.

- أخبريني التفاصيل من فضلكِ.

- هرب منذ تسعة أيام، بعد يوم واحد من عودته، ولم نستطع الإبلاغ لأن الهاتف انقطع بسبب العاصفة، والمدير في إجازة منذ خمسة عشر يوماً، وهو الوحيد الذي يملك سيارة هنا.

- ألم يأتِ أحدٌ لزيارة مريض خلال هذه الفترة؟

- لا، زيارات المرضى نادرة، ومعظمهم يأتون لمرتين أو ثلاثة، ثم ينقطعون، فمن يريد زيارة شخص فقد عقله أو لا يتذكر حتى من هو؟

تدخل إيان بشفقة:

- كيف يمكن لأحدٍ أن ينسى والديه أو أخوته؟

ردت كاترين بتنهيدةٍ ثقيلة:

- للأسف، هذه هي الحقيقة البشرية القاسية.

عادت ميرا إلى الموضوع الأساسي:

- هرب قبل تسعة أيام، أي في 02-12-2004، كان يوم خميس أليس كذلك؟

نظرت إلى التقويم:

- نعم، كان يوم خميس.

أخرجت ميرا رسالة من جيبها الأيسر، وقدمتها لكاترين:

- الطفلة تبكي... الطفلة تبكي... هذه أغنية راسيل!

تساءلت بتوتر:

- أرجوك أخبريني، هل هو بخير؟

كانت هذه الجملة كالصاعقة على الجميع، حتى أن آدم توقف عن الكتابة، وكأن الأحداث تحولت فجأةً إلى فيلم سينمائي، ذلك الذي يُحرك موسيقاه التصويرية عاطفة المشاهدين، علق إيان باندفاعٍ غير مدروس:

- رائع لدينا قاتلٌ مجنون، وهو طليق..

- قاتل؟

صرخت ميرا في وجهه بغضب شديد، كاد أن يُمزق ملامحها:

- أخرس!

ارتعد إيان من صرختها، فتح عينيه بكامل حدقته، وخرج عبر الباب إلى الخارج دون أن ينطق بحرف. أمسكت ميرا رأسها من شدة الضغط والتفكير، قالت كاترين بخوف:

- هل كان يقصد أنه... قتل أحداً؟

تدخل آدم بهدوء:

- للأسف، يبدو الأمر كذلك، هل يمكننا رؤية غرفته؟

أومأت كاترين برأسها، وهي تحاول استيعاب الموقف الصادم:

- ولكن كيف؟ حسناً.. تفضلوا..

خرج الجميع، وتوجهوا نحو غرفة راسيل، أما إيان فكان يجلس على رصيف المبنى ويحاول استيعاب ما حدث، تقدمت ميرا نحوه وقالت بصوتٍ هادئ، بعد لحظات من التفكير:

- أنا آسفة على صرختي، ولكن لا تستخف بالتحقيق مرةً أخرى.

هز إيان رأسه، وتبعهم إلى غرفة راسيل، وعندما دخلوا الغرفة، صُدم الجميع مما رأوه.

كانت الجدران والأرضية مغطاةً بالكلمات والمحادثات العشوائية المتكررة، كأنه يتحدث إلى طفلة من مخيلته "جائعة، أنتِ جائعة،

نامت، طفلة حزينة، اللعبة الثالثة، ضحكت، هل سمعتِ، خائفة، قالت لي، تعالي، البرد طفلتي، الطفلة برد، رسمت الطفلة، حزنت، همست، لن تخرجي أبداً، دماء، دماء.. كل مكان.. دماء، عيون فارغة، ضجيج، طفلة، ظلام، علبة، دماء، ظلام.. ظلام.." كانت الكلمات تتكرر على هذا النحو في كل زوايا الغرفة، حتى على سريره الوحيد. ميرا كانت تقرأ كل الكلمات بسرعةٍ فائقة، وكأنها تبحث عن شيءٍ محدد، حتى وقعت عيناها على أغنيته في مستطيلٍ طويل، مزينٍ بدوائر ومثلثاتٍ عشوائية.

بدأت بقراءة تلك الأغنية بصوتها العالي والمرتجف، ليقشعر الجميع هناك وكأن الأغنية نفسها تتألم بشدة:

"الطِّفلةُ تبكي... الطِّفلةُ تبكي... تُنادي، تُناجي.

الطِّفلةُ تُغنّي... الطِّفلةُ تغنّي... صاحتْ، صاحتْ.

حلَّ الليل... حلَّ الليل... عادتْ، نامتْ.

الغيمُ يئنُّ... الغيمُ يئنُّ... يسقي، يسقي.

المطرُ يلمسُ، المطرُ يهمسُ... يرقصُ، يرقصُ".

انهارت ميرا بشكلٍ مفاجئ، وجلست على الأرض، وكأنها قرأت نعوة أُمِّها أمام عينيها، لتبدأ بالبكاء بحرقة شديدة، اقترب منها إيان وجلس

بجانبها. أكمل آدم الأغنية بصوته الجميل والهادئ، وكأن تلك الأغنية سيطرت على الجميع:

"أحلامٌ صغيرة... أحلامٌ كبيرة... تَهدأ، تَهدأ

نجومٌ مُضيئة... نجومٌ مَليئة... تَلمعُ، تَلمعُ.

الليلُ يحلمُ... الليلُ يحلمُ... الطِّفلةُ نامتْ.

الفجر يشرقُ... الفجر يشرقُ... الطِّفلة ماتتْ."

خرجت ميرا بسرعةٍ إلى الخارج، لم تكن قادرةً على تحُمّل المزيد، جلست على رصيف المشفى القصير ورمت ربطة شعرها التي كانت تحبس أرواح خصلها، لتبدأت بالبكاء مجدداً دون توقف.

لحقها الجميع إلى الخارج، وجلس آدم بجانبها وسألها:

- هل تودين العودة؟

قالت بينما كانت تمسح دموعها، وبصوتٍ مُختنق:

- نعم، أرجوك..

لاحظ آدم رعشة جسدها المستمرة بسبب البرد، غطاها بسترته الشتوية الثقيلة، وأخذها إلى السيارة، وقال لكاترين بينما كان يتجه إلى السيارة:

- سأعود لأخذك في الغد، يجب أن تأتِ معنا إلى المركز لنكمل ما بدأناه.

- سأكون في انتظارك، أعتني بها.

ساق آدم السيارة بدلاً من ميرا نحو العاصمة، وبعد نصف ساعة من الطريق، غفت ميرا على ذلك الكرسي المريح، ليقول إيان:

- رغم صلابتها وقوتها، إلا أنها تبقى فتاة، هل تعلم لماذا انهارت بهذا الشكل؟

نظر آدم إليه عبر مرآة السيارة، ثم أعاد تركيزه إلى الطريق وقال بجدية:

- نعم، ولكنني لا أرغب في التحدث عنه.

كان آدم صديقها الوحيد، والمقرب إليها من بين الجميع، ويعلم جيداً تفاصيل حياتها، وتعلقها بأمِها.

تذكر آدم حادثة انهيار سابقة حصلت لميرا، أثناء تحقيقها مع قاتلة، قتلت والدتها بوحشية كبيرة، لتفقد ميرا حينئذٍ السيطرة على نفسها وتضرب المتهمة بقسوة، وحين سألها آدم عن السبب، انهارت تماماً وأُغميّ عليها، أخذها إلى المنزل، وبعد أن استفاقت، فتحت له كتابها المغلق وحياتها السابقة، ومنذ ذلك الحين، أصبح آدم بمثابة الأخ المقرب لها، وسنداً يحميها عند الضرورة، وملجئاً لأسرارها المكتومة.

تمتم إيان:

- إذن هناك موضوع..

- هل تستطيع التوقف عن الثرثرة؟

تفاجأ إيان منه وقال بتسلُط:

- هل نسيت أنني أعلى منك في الرتبة؟

- لا يهمُني، فقط أخرس.. فأنت مزعج بشكلٍ لا يُطاق.

قال لنفسه، وهو يحاول كبح كرامته المتساقطة "حتى هو يسخر مني.. ربما لو أخفيت رأسي في الوحل لكان أفضل، إشارة المُحقق التي أحملها الآن، لم تعد تعني شيئاً":

- شكراً لك يا آدم على احترامك لي..

ابتسم آدم بخفة، وهو ينظر إلى إيان من خلال مرآة السيارة مجدداً:

- أنا آسف على قولي "أخرس".

أشغل موسيقا هادئة، لكن إيان وكعادته، تدخل بفضول:

- هل...

- أخرس مجدداً، ودعني أقود.

وصلوا إلى المركز بعد ساعتين، نزل إيان من السيارة دون أن ينطق بكلمة، وأكمل آدم الطريق لإيصال ميرا إلى منزلها، وعندما وصلت، نزلت بهدوء، وصعدت إلى منزلها.

لم تنم تلك الليلة في غرفتها، بل قضت ليلتها بجانب والدتها المريضة، تحتضنها، كما لو كانت تستمد القوة والراحة من وجودها.

في اليوم التالي، عادت ميرا إلى المركز بشخصيتها القوية، وربطة شعرها المعتادة، دخلت غرفتها، وتفاجأت بوجود كاترين وآدم جالسين في انتظارها، قالت بلهجةٍ معتادة:

- صباح الخير، أعتذر عما حدث البارحة.

- جميعنا تأثرنا البارحة، حتى أنا لم أنم طيلة الليل.

جلست ميرا خلف مكتبها وسألت آدم:

- هل أخذت سام معك، ليصور المكان؟

- كل الصور على طاولتكِ، وأيضاً التقرير، فأنا أعرف عاداتكِ.

- ماذا عن خبير الخطوط؟ هل تأكد بأن الخط يعود له؟

- الخط هو نفسه، راسيل هو القاتل بلا شك.

أخذت ميرا نفساً عميقاً، ثم نظرت إلى صورة راسيل المبتسمة، والتفتت إلى كاترين وسألتها:

- أخبريني قصة راسيل من البداية.

بدأت كاترين تسرد القصة بعاطفة:

- قبل سنوات، تعرض راسيل لصدمةٍ نفسية شديدة بعد وفاة ابنته الصغيرة، ومنذ ذلك الوقت، وهو في حالته هذه.

- ما هو مرضه بالتحديد؟

- يعاني من الفصام "Schizophrenia"

- أتعنين أن لديه شخصيتين؟

- الفصام هو اضطرابٌ نفسي، يؤثر على تفكير الشخص، إدراكه، وسلوكه، والأشخاص المصابون بالفصام يعانون من صعوبة في التمييز بين الواقع والخيال، مما يجعلهم يفقدون اتصالهم بالعالم الخارجي في أوقاتٍ معينة.

- وهل يمكن أن ينشأ هذا المرض بسبب صدمة؟

- نعم، يمكن أن تكون الصدمات النفسية من العوامل المحفزة للإصابة بالفصام، لكنها ليست السبب الوحيد، هناك عوامل أخرى مثل الوراثية، البيولوجية، والبيئية، الصدمات النفسية يمكن أن تلعب دوراً أيضاً في تطور الفصام بطرُقٍ مختلفة.

- وما هي أعراض المصاب، أو بشكلٍ أوضح كيف نعلم أن هذا الشخص مصابٌ بالفصام؟

- أكثر الأعراض شيوعاً هي الهلاوس والأوهام، والسلوك الحركي، الغير الطبيعي.

- هلاوس!

- هلاوس سمعية أو بصرية، يمكن للمريض مثلاً، أن يسمع أصواتاً تهددُه أو تأمره بفعل شيءٍ ما، أو حتى يسمع ابنته تتحدث إليه.

- إذن، كل تلك الكلمات على الجدران بسبب الهلاوس؟

- نعم، باستثناء الأغنية.

توقف آدم عند كلامها:

- ماذا تعنين باستثناء الأغنية؟

- عندما هرب للمرة الأولى، عاد وألف أغنية، وصار يرددها باستمرار وكتبها على حائطه.

- أتقصدين أن الأغنية حديثة؟

- نعم.

سألت ميرا بتوتر:

- ماذا عن قتل شخص؟

- الحالات الخطيرة، يمكن أن يقتل بدون وعي، قد يظُن أن ذلك الشخص يمثل تهديداً له، أو أنه وهمٌ غير واقعي، في بعض الأحيان يسمع أوامر، تأمر بالقتل، وعندما ينفذها يشعر بالراحة.

تدخل آدم:

- يا إلهي... أي أنه لا يدرك ما يفعله.

- للأسف، هذا صحيح، ولكن راسيل ليس من هذا النوع.

- لماذا تعتقدين ذلك؟

- حالته مستقرة، وهو شخصٌ طيب، فكلما ماتت حمامة في حديقة المشفى، كان يدفنها ويصنع قبراً جميلاً لها.

- ولكن الأدلة تثبت أنه الفاعل.

تقف ميرا لتصافح كاترين وتقاطع ذلك الحديث:

- شكراً لكِ على هذه المعلومات، سأرسل أحداً لإيصالك إلى المشفى، وسأحرص على إصلاح الهاتف.

قالت كاترين بقلق:

- إذا قبضتم عليه، أرجوكم، تعاملوا معه بلطف، فهو طيب القلب، ولا يدرك أفعاله.

ابتسمت ميرا بلطف رغم حزنها:

- لا تقلقي، سأحرص على ذلك.

بعدما ودعت كاترين، وأمرت سائقاً هناك، بإيصالها إلى المشفى مع مروره على قسم الهواتف لتصليح هاتفهم المعطل، عادت إلى غرفتها، قال آدم وهو يكتب تقريره:

- يجب عليكِ التحدث مع نيل، ليعمل مؤتمراً صحفياً، وينشر صورة القاتل.

- هل تعتقد أنه القاتل؟

- مع كل الأدلة تدينه! بالتأكيد، هل تشكين في الأمر؟

- لست واثقة..

رد بحدة:

- لم أشك في ذكائكِ يوماً، ولكن يبدو أنني قد أبدأ الآن.

أخذت ميرا نفساً عميقاً وسارت في الغرفة ذهاباً وإياباً:

- هرب راسيل في 02-12-2004 في يوم الخميس. الطريق من العاصمة إلى المشفى يستغرق ساعتين في السيارة بسرعة 80 كم، أي المسافة بالكامل 160 كم؛ لنفترض أنه أخذ ذلك الطريق مشياً، وسرعة المشي لدى الإنسان هي تقريباً 4 كم في الساعة، سيستغرق أكثر من 50 ساعة. لن يتمكن من قتل الضحيتين.

حملت قلمها وبدأت بضرب يدها اليمنى بخفة وأكملت:

- لو كان يجري بسبب المنحدر، سيبلغ سرعته 7 كم في الساعة، أي 22 ساعة تقريباً..

قاطعها آدم:

- 22 ساعة كافية لفعل كل شيء..

- أحياناً أشك في ذكائك يا آدم، هل تستطيع أن تمشي أو تجري 22 ساعة متواصلة بدون استراحة أو نوم؟ رغم ذلك، سأجاريك بأنه استطاع ذلك، لماذا سيأخذ العناء بالوصول إلى العاصمة؟

- لم أفهم؟

- هناك الكثير من البيوت الصغيرة في سفح الجبل، لماذا سيأتي إلى العاصمة بالتحديد؟

بدأ آدم بالشك أيضاً، أكملت ميرا:

- حسب قول الطبيبة، أن المريض سيقتل بشكلٍ عشوائي لو أراد القتل، لنفترض أنه لم يقتل هناك، وأتى إلى العاصمة، لماذا سيأخذ الجثة إلى مكانٍ آخر؟ هناك الكثير من الأسئلة بحاجة إلى إجابة..

- حسناً، لو قلنا إنه هرب وبعد وصوله إلى قرية إيتيل أو زولا، واختبأ في سيارة أحد القاطنين، وساق به إلى العاصمة وإلى منطقة إصلاح

السيارات في المصانع، وبعد نزوله التقى ليام وسحبه إلى ذلك المنزل وقتله، هذا الاحتمال وارد.

- هذا احتمال، ولكن ماذا عن الجثة الأخرى؟

- ربما حاول مساعدته هناك وقتله هو الآخر!

- وطريقة القتل؟ والمكان؟ ونقل الجثة؟ واختلاف الرسالة والأغنية؟ كل هذه الأسئلة، تحتاج إلى أجوبة منطقية.

- ليست لدي فكرة.

- رغم ذلك، اذهب إلى القريتين واسأل أصحاب السيارات هناك، إذا كانوا قد غادروا منازلهم في ذلك اليوم، وأجمع التفاصيل لنتحدث بها غداً، وأنا سأشرح لنيل كل شيء قبل مغادرتي المركز، في جميع الأحوال يجب علينا الإمساك به، لنعيده إلى المشفى.

اتجه آدم نحو القريتين، أما ميرا فقد كانت تتعمق في التفاصيل، حتى أن الساعات قد مرت عليها دون أن تشعر، فلم يكن في غرفتها ساعة حائطٍ واحدة، وكانت تكره صوت الساعات المعلقة، وكأن صوتها ينبض من قلب الجحيم نفسه.

نظرت إلى ساعة يدها بالصدفة لتجد أن الساعة تجاوزت الرابعة، صعدت بسرعة إلى الطابق السادس، إلى غرفة نيل، وشرحت له جميع

التفاصيل التي توصلت لها، ثم اقترحت عليه نشر صورة راسيل في الصحف اليومية مع مكافأةٍ مالية دون الحديث عن تفاصيل مرضه أو الجرائم. وافق نيل وقال بإنه سيتكلف بهذه المهمة، لتمضي ميرا إلى منزلها كالمتعاد، تلتقي بأمها، يتبادلان الحديث المتكرر، وتمضي إلى غرفة نومها.

عادت في اليوم الثاني إلى المركز، وتفاجأت بحشدٍ كبير أمام المركز، كان آدم ينتظر ميرا عند حافة الشارع، ألقى نظرةً سريعة على الحشود، ثم أشار لها بالتحرك إليه:

- ماذا يحدث؟

- جريمة أخرى يا ميرا..

"الحياة ليست ما تعيشه،

بل ما تتذكره وكيف تتذكره لترويه"

غابرييل غارسيا ماركيز

الجريمة الثالثة – 13 ديسمبر 2004
الساعة الثامنة صباحاً

كان المركز في ذروة نشاطه صباح ذلك اليوم، تدور فيه عجلة الحركة بلا انقطاع؛ الفوضى عمّت المكان، عشرات الصحفيين تجمعوا أمام المدخل، يتدافعون بين بعضهم البعض، محاولين اختراق الحواجز التي وضعتها الشرطة هناك، كاميراتهم تومض بلا توقف، وميكروفوناتهم تتجه نحو كل شرطي يقترب، وأصواتهم العالية والملحة تطالب بإجابات، وتخلق جواً مشحوناً لا يحتمل، وكأنهم ينتظرون عنواناً رئيسياً لهم.

عند وصول ميرا إلى المركز، قادها آدم بسرعة عبر الأزقة الضّيقة التي تحيط بالمركز، حاول أن يبعدها عن أعين الصحفيين وعدساتهم.

كان التفكير يثقل كاهلها، وهي تحاول استيعاب ما حدث "جريمةٌ أخرى كيف!".

وصلت ميرا إلى المركز عبر الباب الخلفي، لتجد نفسها في صالة الاستقبال مع تجمع عناصر الشرطة والمُحققين في دائرة، ويتوسطها نيل، كبركانٍ يوشك على الانفجار.

كان يصرخ على الجميع دون أن يستثني أحداً، ويوبّخ المُحققين بشدة، وجهه متجهّم، حاجباه معقودان، وكلماته كانت سريعة ومشدودة،

وعندما رأى ميرا تدخل، لوح بيده ساخراً، وبدأ بالتصفيق بقوةٍ كبيرة، وكأنه يريد أن يلفت الانتباه:

- جريمةٌ أخرى ومُحققتنا نائمة، أين كنتِ؟

تقدمت ميرا بهدوء إلى جانبه، وحاولت امتصاص غضبه دون أن تفقد توازنها، وأجابت:

- في المنزل.

- ولماذا كان هاتفكِ مُغلقاً؟

خيم الغضب في داخلها، كعاصفة مكتومة تبحث عن مخرج:

- أنت تعلم جيداً، أنني أغلق هاتفي عندما أعود إلى المنزل، فما الأمر؟ لماذا كل هذا التوتر؟

- أأنتِ عمياء؟ ألا ترين الصحفيين في الخارج؟

- نعم أراهم... يريدون معلومات، ونحن لم نمنحهم شيئاً بعد.

- أنت مخطئة يا مُحققة، لقد نُشر الخبر بالفعل!

اندفع نيل إلى طاولة الاستقبال، وأمسك بصحيفة آساميا، أشهر صحيفة في البلاد، ثم رماها نحوها بعصبية.

حملت ميرا الصحيفة، وقرأت العنوان العريض "مجنونٌ طليق من مشفى الأمراض العقلية يقتل بوحشية في العاصمة"، توقفت لثوانٍ، وكأن الدماء تجمّدت في عروقها، نظرت إلى نيل:

- فهمت... ليست الجريمة التي أغضبتك، بل تسريب الخبر.

صرخ نيل مجدداً، بينما فتح ذراعيه بتحدٍ ساخر:

- وأخيراً! ذكية كما توقعت.

نظر إلى الجميع وصرخ، قبل أن يغادر المكان:

- سأجد من سرّب الخبر، وسأحرص على أن يقضي خمس سنواتٍ كاملة في السجن دون أن يُدافع عنه أيّ قانون! أنا القانون هنا...

شعرت ميرا بثقل المصيبة التي حلت عليهم، فتسريب الخبر يعني أن التحقيقات ستكون تحت ضغطٍ هائل، وأنهم سيواجهون تحدياتٍ من أعلى المستويات.

سارت بخطى حازمة مع آدم نحو غرفتها، والغضب يكسو ملامحها:

- متى تم إبلاغكم عن الجريمة؟

- قبل حوالي ساعة.

تفاجأت ميرا:

- ماذا! كيف تجمع كل هؤلاء الصحفيين في هذا الوقت القصير؟

- في الحقيقة، الصحفيون هنا منذ السادسة صباحاً، ربما لم يعلموا شيئاً عن الجريمة الجديدة بعد.

أخذت ميرا الصحيفة وبدأت تقرأ المقال بسرعة:

- اذهب وأخبر الجميع أن يستعدوا، سنغادر إلى مسرح الجريمة بعد ربع ساعة، وقل لإيان أن يأتي إليّ فوراً.

- إيان؟ لماذا؟

نظرت إليه بعينيها المشتعلتين ولم تجب، لينسحب آدم بهدوء ويُنفّذ ما طلبته. بعد دقائق، طرق إيان باب مكتبها، وجلس أمامها، لتسأله بشكلٍ مباشرة:

- بدون مقدمات، لماذا سرّبت الخبر؟

ارتبك إيان وتلعثم:

- أنا... لم... لم أُسرّب شيئاً، من أخبركِ بهذا؟

اقتربت ميرا منه ورمت الصحيفة في وجهه:

- انظر إليّ أيها الغبي، لا تخدعني بأساليبك الرخيصة هذه.

- أيّ أساليب، أنا حقاً لم أُسرّب الخبر.

جلست ميرا أمامه، وجارته في كذبته:

- حسناً، أخبرني بما أنّك مُحققٌ فاشل، كيف وصل الخبر إلى صحيفة آساميا؟

- لا أعلم، ربما بعد أرسال نيل الصورة لهم بالأمس، قاموا بالتحقق في الموضوع، وعرفوا أنه هرب من المشفى، ربما كاترين من أخبرتهم أيضاً.

أخذت ميرا نفساً عميقاً، ثم أمسكت الصحيفة مجدداً، وقرأت "وقد اقترف الجاني جريمتين":

- فسر لي هذا، أيها المُحقق!

ارتبك إيان مجدداً:

- ماذا تعنين؟

- كاترين لا تعرف شيئاً عن الجرائم، ومن سرّب الخبر، أما أنت، أو أنا، أو آدم!

- ولماذا شككتِ بي؟ هناك الكثير ممّن يعرفون عن القضيتين، سام، طبيب التشريح، وغيرهم.

- لأن وجهك الناعم، لا يتحمل صفعة.

وقف على أقدامه:

- ماذا؟

- اسأل نفسك، شخصٌ يعمل طوال خمس سنوات على تسجيل البلاغات وأرشفتها، ولا يتحمل مناظر الجثث، وغبي بالفطرة، ثم يتقدم بطلب نقل إلى قسم التحقيق!

- هذا ليس...

- لديك خمس دقائق قبل ذهابي إلى موقع الجريمة الثالثة، أما أن تعترف الآن ولن أبلغ أحداً، وتعود إلى عملك القديم في الأرشيف، أو سأخبر نيل، وأنت تعرف جيداً، ماذا سيحدث لك، ماذا تختار؟

شعر إيان وكأن العالم ينهار فوق رأسه، عيناه امتلأتا بالدموع:

- سأخبرك بالحقيقة.

جلست خلف طاولتها، وأحضرت ورقة وقلم:

- تحدث!

سألها بخوف:

- ماذا تفعلين؟

- مثلما نفعل مع المُجرمين عادةً، فقط تحدث وتجاهل القلم.

- عرضوا عليّ مبلغاً كبيراً من المال، ولم أستطع أن أرفض.

سألت ميرا بلهجة تحقيق:

- كم عرضوا عليك؟

- خمسة أضعاف راتبي الشهري.

- هل هذه أول مرة تقوم فيها بتسريب الأخبار إلى الصحف؟

- وكأنكِ تُحققين معي الآن بشكلٍ غير رسمي.

قالت بسخرية وهي تنظر إلى عينيه بشكلٍ مباشر:

- أنا آسفة أيها المُحقق المشهور، لنذهب إلى غرفة التحقيق الرسمية في الطابق السفلي ليعجبك الحال، ما رأيك؟

شعر إيان بالحرج وأكمل:

- أنا آسف، نعم هذه أول مرة.

عادت للكتابة:

-هل كان دافعك هو المال فقط؟

- كان دافعي هو الحُب.

- عفواً!

بدأت الدموع تنهمر على وجنتيه:

- لقد أحببت فتاةً منذ ثلاث سنوات، ولم أتجرّأ أن أتقدم لخُطبتها بسبب وضعيّ المالي، ليس لدي منزل أقيم فيه، وأعيش مع أصدقائي، ولا أستطيع استئجار منزلٍ في العاصمة بسبب الغلاء.

- لماذا لم تستأجر في الضواحي؟

- حاولت، ولكن جميع المنازل يريدون دفعةً مُقدمة، ويصعب عليّ أن أدفعه مرةً واحدة.

تأثرت قليلاً بما سمعته، لكنها ظلت صارمة:

- ولماذا لم تستلف المبلغ؟

- أصدقائي هم بنفس حالتي، ولا أعرف أحداً لأتدين هذا المبلغ منه، بعدما صعبت عليّ الأمور، أتى صديقي ومعه صحفي من جريدة آساميا المشهورة، كانا يعرفان بعضهما منذ الطفولة، اقترح عليّ أن أُسرّب أخباراً مهمة، مقابل مبلغٍ من المال، فكرت بالأمر ووافقت، وقدمت طلباً رسمياً، لنقلي إلى قسم التحقيق.

- هذا كل شيء إذن، لن أكذب عليك، فقد تعاطفت معك قليلاً، ولكن عملي ومشاعري لا يجتمعان، لذلك وقع على هذه الورقة.

قرأ إيان الورقة، وأكتشف أنه طلب نقلٍ رسمي إلى الأرشيف، وقع عليها دون أن ينبس بكلمة واحدة، لتعطيه الورقة الأخرى. تفاجأ بأن ميرا قد كتبت كامل أقواله عليها:

- لكنكِ أخبرتني، أنكِ لن تخبري أحداً؟

- بالفعل لن أخبر أحداً، وقع عليها، الورقة ستبقى معي، أما طلب نقلك فيمكنك إعطاؤه لنيل وتعود إلى مكانك القديم، مع السلامة.

خرج إيان بشكلٍ محرج من مكتبها، ليصادف آدم، الذي دخل بتشاؤم:

- لدينا مشكلة!

بدأ قلبها ينبض بسرعة، وكأنه سيخرج من مكانه:

- مشكلةٌ أخرى؟

- سيشاركك غروم في هذه القضية...

انفعلت بسرعة:

- ماذا؟ من أخبرك؟

- لديه أمرٌ من نيل.

- مستحيل... لن أقبل بذلك، سأذهب إلى نيل، وأتحدث معه.

اتجهت نحو غرفة نيل في الطابق السادس ليدخل غروم إلى غرفتها بحضورٍ غير مُرحب؛ كان رجُلاً قصير القامة، متعجرفاً، عيناه الخضراوان تلمعان بتكبر، وتحدقان حوله بنظرةٍ متعالية، شعره الذهبي مرتبٌ جانباً، وذقنه بارزة إلى الأمام، بينما أنفه الطويل والمرفوع زاد من إحساسه بالتفوق، أما شفاهه ملتويةٌ في ابتسامةٍ ساخرة تفيض بالاستهزاء.

كان غروم يعمل كمُحققٍ جنائي منذ خمس سنوات، يتعامل مع الجميع وكأنهم عبيدٌ لديه، ولم يكن يحترم من أدنى منه في الرتبة، بل كان يوبّخهم طوال الوقت بأسلوبه الهادئ.

كان يحل القضايا بطريقةٍ مستهترة، وكأنه المُحقق الذي لا يخطئ أبداً.

عندما عُيّنت ميرا في الأمن العام، أصبحت مساعدته في البداية، وكان يستفزها باستمرار، وكأنه يعلمُها أسلوب التحقيق، وكيفية تحليل الأدلة، بالرغم من أن ميرا، قد تفوقت عليه منذ البداية. بعد حوالي أسبوعين من تعينها، تولى غروم قضية قتلٍ معقدة، ورغم غروره عجز عن حلها، اقترحت ميرا على نيل آنذاك، أن تستلم القضية، وبالفعل تمكنت من حلها ببراعة، واستلمت بعدها عدة قضايا، وحلت جميعها.

كان الجميع يحُبها ويحترمها بسبب حُبها لزملائها، لذلك عينها نيل كمُحققة في قسم التحقيقات الجنائية بجانب غروم، ومع مرور الوقت أصبح واضحاً للجميع أن ميرا هي المُحققة الأولى في المركز. القضايا الجنائية السهلة والواضحة كانت تُمرّر لغروم، أما المُعقدة والتي تحتاج إلى مُحققٍ بارع، فقد كانت تستلمها ميرا، ورغم أنهما كانا من المفترض أن يتعاونا في حلها، إلا أن العداء الخفي بينهما كان واضحاً

للجميع، حتى زملائهما في المركز كانوا يفضلون التعامل مع ميرا وحدها.

ألقى غروم التحية بأسلوبه المبتسم والمستفز "مرحباً".

تجاهلته ميرا، واستمرت في طريقها نحو غرفة نيل.

كان غرفة ميرا في الطابق الخامس، فقد تم تجهيزها خصيصاً لها بسبب حلها للقضايا، وفي نفس الوقت، كانت لتتجنب التصادم مع غروم، أما غروم فقد كان في الطابق الرابع في غرفته القديمة، ونادراً ما كانا يلتقيان، حتى وإن التقوا ببعضهما لم يكن أحدهما يلقي بالتحية على الآخر، وكأنهم أعداءٌ بالفطرة.

دخلت ميرا غرفة نيل دون استئذان، كان نيل يتكلم مع الصحافة عبر الهاتف بسبب نشرهم الخبر قال لهم "سأتحدث معكم لاحقاً"، وبمجرد أغلاق الهاتف، قال بغضب:

- كيف تدخلين غرفتي بهذا الشكل؟

ردت بحدة شديدة:

- لماذا عيّنت غروم معي في هذه القضية؟

- لأني رئيسكِ، ولا أكترث لعداوتكِ معه، أريد حل هذه القضية.

- وهل تعتقد، أن هذا المتعجرف والمغرور، سيساعدني؟ أنت مخطئ، بل سيشتتني بتهوره وغبائه.

- قلت لكِ لا أكترث، سواء أعجبك الأمر أم لا، فبعد تسريب الخبر، الضغط أصبح لا يحتمل، حتى لو اضطررت لتعيين مُحققين من الشارع سأفعل.

شعرت ميرا بالاستياء، فردت بجرأة:

- إذا كان الأمر كذلك، اعزلني من القضية.

تفاجأ نيل من كلامها وتقدم نحوها:

- أعزلكِ! أنا الرئيس هنا، وليس أنتِ، والموضوع انتهى، انصرفي.

ردت ميرا بتحدٍ:

- قلت لك...

- عودي إلى عملك فوراً!

خرجت من غرفته، وهي تكتم غضبها المتصاعد. عادت إلى آدم:

- لنذهب إلى مسرح الجريمة.

وصل الفريق إلى مرآب السيارات العام في منتصف المدينة، الذي كان بمساحة واسعة، ويمتد على طول عدة طوابق تحت الأرض وفوقه.

كان سقفه العالي يكشف عن أنابيب التهوية وأضواء "الفلورسنت" البيضاء، التي كانت تلقي وهجاً بارداً على السيارات المتوقفة بتناسق. بعد قيادتهم نزولاً إلى الطابق السفلي، إلى مسرح الجريمة، تفاجؤوا بحافلةٍ صغيرة، مزودةٍ بأجهزة متقدمة، تخرج منها أسلاك بثٍّ طويلة، وتتصل بصحنٍ ضخم على سقف السيارة.

كانت تلك الحافلة مخصصةً للبث المباشر لعدة قنوات إخبارية، وأمامها إعلامية، تُقدم تقريرها العاجل للقناة، أمام تلك الكاميرا والأضواء ساطعة.

حفيف الأوراق وأصوات الكتابة السريعة على أجهزة الكمبيوتر المحمولة، تداخل مع ضجيج المحركات التي لم تطفأ بعد، كان الجميع مستعداً للانطلاق حال ورود أيّ معلومات جديدة، وبث الأخبار إلى العالم في لحظات.

الصحفيون كانوا في كل مكان، يتحركون بحماسة وجلبة، كاميراتهم ملتصقةٌ على أكتافهم، وأجهزة التسجيل المحمولة تملأ الأيادي، بعضهم كانوا يقفون إلى جانب السيارات، ويتحدثون في هواتفهم بعصبية، بينما آخرون تجمعوا في مجموعاتٍ صغيرة، ويناقشون التطورات.

أعدادٌ كبيرة من الميكروفونات تنتظر إجابات من داني وفريقه، الذين كانوا يدفعون بهم لكيلا يتخطون مسرح الجريمة. قالت ميرا بغضبٍ وهي جالسة في السيارة:

- كيف سننزل الآن؟

بينما كان آدم يحاول تقديم اقتراحاته، نزل غروم من السيارة بابتسامةٍ عريضة، وكأنه يستمتع بالأضواء التي تتسلط عليه أمام الكاميرات. تمتمت ميرا لنفسها بغضب:

- ماذا يفعل هذا الغبي؟

تقدم غروم إلى مسرح الجريمة، والصحفيون يتجمعون خلفه كأسراب النّحل، ينتظرون منه تصريحاً، ليحرك يده في الهواء برفضٍ واضح، وكأنه يريد اظهار تكبره، التي أثار استياء الحاضرين، خاصةً ميرا، فغضبها من نيل، ازداد مع تصرفات غروم، حتى بات هذا الحمل الثقيل عليها يكاد لا يحتمل.

بعد لحظاتٍ قليلة، وبينما كان غروم يتقدم نحو الجثة، اعترضه أحد الصحفيين بسؤالٍ محرج "هل أنت المُحقق المسؤول عن القضية، أم مجرد مساعدٍ؟"، ليردّ بثقة "نعم، أنا المسؤول الكامل عن ملف

التحقيق"، وبدأ يتحدث إلى الصحافة، ويحاول لفت الأنظار، ليتحول إلى مركز اهتمام الإعلام ومحور حديث القنوات الإخبارية.

نظرت ميرا إلى آدم باستغراب من تصرفات غروم المتبجّحة، وتجاهلت حديثه وهي تواصل سيرها نحو مسرح الجريمة.

تمكّن فريق داني من إبعاد الصحفيين عن طريقها، فقال داني مستهزئاً بما يحدث:

- ماذا يفعل هذا الأحمق معكم؟

أجاب آدم بصوتٍ خافت:

- هل تريد أن يسمعك أحد؟ نيل هو من أشركه في التحقيق.

وصلت ميرا إلى الجثة، المغطاة بشرشفٍ أبيض، خلف عمودٍ داعم، وبجانبها سياراتٌ عدة، وقرأت رسالة القاتل الثالثة "الطفلة تئن، الطفلة تهمس، لغيمة المطر التي ترقص...".

كانت الرسالة مكتوبة فوق رأس الجثة، بالفحم وبخطٍ عريض، استدعت ميرا خبير الخطوط على الفور، وعندما وصل، قرأ الرسالة بسرعة:

- إنها من نفس الشخص، لا حاجة لفحصٍ دقيق.

حيرتها سرعة استنتاجه:

- كيف عرفت من دون تدقيق؟

أجاب بثقة:

- سهلة، ضغطة اليد، ميل الحروف، والمسافات المتكررة، كل هذا يدل على أنه نفس الشخص.

- وماذا عن توقيت الكتابة؟

- يمكننا فحص توقيت الكتابة باستخدام تحليلٍ كيميائي، لكن بعد مرور يومين على الأقل يصبح من الصعب تحديد الوقت بدقة، وهذه الطريقة تنجح مع الأقلام، وليس مع الفحم.

- أتقصد أنها كُتبت منذ فترةٍ طويلة؟

- نعم، من المحتمل أنها كُتبت منذ شهر أو أكثر.

- تحقق بدقة وأخبرني بالنتيجة النهائية.

- سأفعل.

توجهت ميرا إلى داني:

- من أبلغ عن الجريمة؟

رجُلٌ في الأربعين، كان يركن سيارته على بعد موقفين من هنا، رأى الجثة وأبلغ الشرطة.

- هل سجلت معلوماته؟

- بالطبع.

- هل وجدت آثاراً للفحم بالقرب من الجثة؟

- لا، لم أجد أيّ أثار.

- ماذا عن كاميرات المراقبة؟

- القاتل كان يتحرك في منطقة عمياء، حتى أنه قتل في زاوية غير مغطاة بالكاميرات، وهرب دون أن تلتقطه.

صُعق آدم من حديثه، لتقول ميرا:

- ماذا؟ تحرك في نقطة عمياء؟

تعالت صرخات الجميع:

- ليس لدينا وقت الآن، تأكد من منع التصوير، سيبدأ أندير بفحص الجثة الآن، وسننقلها.

- لا تقلقي، لن أسمح لأحد بالاقتراب.

بينما كان فريق ميرا يتعاون مع فريق داني في إبعاد الصحفيين، تقدم أندير ليكشف عن الجثة؛ كانت الجثة، لرجُلٍ مربوط من يديه وقدميه بإحكام، وجلد رأسه متشوه بسبب صبّ مادة كيميائية، أذابت جلد رأسه بالكامل، قال أندير بعد تفحصه:

- يبدو أن القاتل استخدم حمض الكبريتيك أو الهيدروكلوريك لإذابة الجلد.

- وماذا عن توقيت الوفاة؟

تقديري أنه قتل اليوم بين الثالثة والخامسة فجراً.

- هل أنت متأكد؟

- عضلاته دخلت في مرحلة التصلب الكامل، وهذا يحدث بعد ست ساعات تقريباً بحسب البنية الجسدية للضحية، سنحتاج إلى تشريح الجثة للتأكد.

وصل سام ليلتقط صوراً للضحية والمكان، ولحقه غروم بعد انتهائه من التفاخر أمام الصحافة، وقال بثقة:

- أخبروني بما توصلتم إليه؟

تجاهله أندير واتجه إلى السيارة، أما ميرا وقفت أمامه بشكلٍ عسكري وبنظرتها الصارمة:

- هل انتهيت من التفاخر بتصريحاتك الكاذبة؟ ستتحمل العواقب، ولن تُفلت منها.

تحركت بعيداً عنه، واتجهت نحو المدنيين والصحفيين، وقالت بهدوءٍ:

- أرجو منكم أن تخلوا المكان، لدينا عملٌ نقوم به.

رد أحد الصحفيين من الخلف:

- وكيف ستمنعيننا؟ هذا عملنا.

أثار ذلك غضبها:

- كما تمنعني أنت الآن، أن لم تغادروا سأضطر لاستخدام القوة لإبعادكم.

نظر داني وآدم إلى بعضهما باستغراب من ردة فعلها، أما غروم فكان يبتسم على ما يحصل. سحب داني يدها وقال:

- هل جُننتِ؟

نظرت إليه بعينين مليئتين بالغضب، وكأن غضبها من غروم ونيل قد بدأ بالخروج:

- أتركني، وإلا كسرت يدك.

تداخلت الأمور عندما قال الصحفي مرةً أخرى:

- لن تستطيعي فعل شيء...

ابتسمت ميرا في وجهه بشكلٍ ساخر، ليسألها أحد الصحفيين، إذا كانت هي الضابطة المسؤولة هناك:

- لديكم عشر دقائق وإلا سأضطر لاعتقالكم، وإذا لم تكف قواتنا، سأتصل بالجيش.

توترت الأجواء، وبدأ الصحفيون بتصويرها بكاميراتهم، وكأنهم يصورون مشهداً سينمائياً. قال أحدهم من بين الحشد:

- سنرفع دعوى ضدكِ.

اقتربت منه ميرا ببطء وابتسامة وسط تلك الكاميرات والأضواء، ثم فجأةً لكمته بقوة، فسقط مُغشياً عليه وسط دهشة الجميع، وسحبت مُسدسها، وأطلقت رصاصة في الهواء، تلك الرصاصة واللكمة زادتا من التوتر والذعر بين الحضور، ليفر الحشود، بينما اختبأ المصورون خلف السيارات، مستمرين في توثيق اللحظة، ببثٍ مباشر.

دخلت سيارتها ولحقها آدم وجلس بجانبها، وقادت إلى المركز بسرعة جنونية، وكأنها تنتظر من أحد، أن يخرج أمام سيارتها، لتدهسه. زملائها كانوا متجمدين في أماكنهم، غير مستوعبين الموقف، فقد كانت هذه أول مرة، يتصرف فيها مُحقق بجنون في البلاد بأكملها. تقدم فريق الشرطة، وحملوا الجثة على السرير المتحرك، ووضعوها في سيارة الإسعاف التابعة لمركز الأمن، أما غروم فقد عاد إلى

الصحفيين وبدأ بالاعتذار منهم على تصرفات زميلته في التحقيق وسلوكها، ليصرح أيضاً عن اسمها ومكانتها في العمل.

في تلك الأثناء كانت ميرا تقود بسرعةٍ جنونية نحو المركز، رنّ هاتفها لأكثر من عشر مرات، كان نيل يحاول الاتصال بها بعد أن شاهدها على البث المباشر، أما آدم فقد كان متجمداً في مكانه، بسبب توترها وقيادتها المتهورة:

- ميرا، أوقفي السيارة.

كان الهاتف يزيد من توترها، وهي بدورها تزيد السرعة على طريق العام، ليصرخ آدم في وجهها لأول مرة:

- ميرا... توقفي الآن!

أوقفت السيارة فجأةً، لدرجة أن رأسيهما كادا يصطدمان بزجاج السيارة الأمامي، نظرت إليه، وكأنها استعادت وعيها، ليقول بهدوء كعادته:

- دعيني أقود الآن... هل تسمحين؟

بينما كانت تنزل من السيارة بهدوء، رن هاتفها مجدداً، رفعت يدها وبكامل قوتها، ضربت ذلك الهاتف على الأرض، لينكسر بشكلٍ كامل.

قاد آدم السيارة بسرعةٍ معتدلة، محاولاً تهدئتها:

- هدئي من نفسك قليلاً، أعلم أن سبب غضبك هو نيل، وغروم زاد الأمر.

نظرت إليه، وهي تمسك بجبينها من شدة الألم:

- منذ انتقالكِ وأنا أعتبركِ أُختاً لي، وأدافع عنكِ دائماً، وهذه المرة...

قاطعته:

- أرجوك، لا تبرر موقفي أمام نيل، أنا أعلم جيداً، أنك دائماً تدافع عني في غيابي، ولكن هذه المرة أريدك أن تعدني بعدم التدخل، دعه يتحمل عواقب أفعاله، وردة فعلي.

- حسناً، كما تريدين.

بعد قيادةٍ مستمرة لعشر دقائق، وصلا إلى المركز:

- سأنتظركِ في الأسفل، لأوصلكِ إلى المنزل.

ابتسمت ميرا امتناناً، وصعدت إلى غرفتها لتجمع أغراضها الشخصية وبعض الأوراق المهمة، وبينما كانت تهم بالخروج، فُتح الباب بعنف، ليدخل نيل وهو يضرب الباب بقدمه، وبدأ بالصراخ عليها:

- كيف تجرؤين على ضرب صحفي أمام الجميع؟ هل جننتِ؟

نظرت إليه ميرا بهدوء:

- ماذا تريد الآن؟ شارتي؟ خُذها...

رمت شارتها بقوة على صدره، وكأنها تنتقم من كل الإهانات التي تعرضت لها، ووضعت مُسدسها على الطاولة، وسارت نحو الباب:

- سأحرص أن يرفع ذلك الصحفي دعوى عليكِ، وسأسجنكِ بنفسي، أعدُكِ بذلك.

نزلت ميرا إلى آدم وركبت بجانبه، وانطلقا نحو منزلها، وعند وصولهما، استقبلتهما كندا بلهفة:

- كل هذا الوقت وأنتِ ضابطة في الشرطة ولم تخبريني؟

ابتسم آدم:

- ليست مجرد ضابطة، إنها المُحققة الأولى.

احتضنتها كندا وقلدت حركتها في لكم الصحفي:

- كانت قوية بالفعل، أصبحت اللكمة حديث البلاد، الجميع يتحدث عنها في الأخبار.

جلس الثلاثة حول الطاولة، وقالت ميرا بسعادة:

- لم أكن أريد أن يعرف أحد هويتي، خاصةً الجيران، أنا آسفة لأني أخفيت الأمر عنك.

ردت كندا بتفهم:

- لا تهتمي، أنا أتفهم الأمر، بالمناسبة، صنعت اليوم كعكتي المفضلة، هل تودون تجربتها؟

قال آدم مازحاً، وكأنه يُعبر عن إعجابه برقتها:

- بكل سرورٍ، أنا جائع.

وقفت ميرا وتوجهت إلى غرفة والدتها لتتفقدها، وعادت إلى المطبخ:

- دعونا نتناول الطعام أولاً، ثم نأكل الكعكة.

اجتمعوا حول الطاولة لتناول الفطور سريعاً، وانتقلوا إلى غرفة المعيشة، قلبت ميرا القنوات التلفزيونية، لتجد جميع القنوات تتحدث عن لكمتها للصحفي.

توقفت عند أحد القنوات، التي كانت تعرض عنواناً "مُحققة من الأمن العام تضرب صحفياً أثناء تأدية عمله"، قالت المذيعة "لدينا مداخلة سريعة من السيد غروم، المُحقق في الأمن العام"، ليبدأ غروم كعادته، التحدث بتكبُّر وإدانة واضحة على تصرفات ميرا.

ضحكت ميرا بسخرية:

- حتى في أسوأ حالاتي، يظل هذا الأحمق مصدراً للضحك.

ضحك آدم معها، لكن كندا كانت مستغربة، لا تفهم شيئاً مما يحدث.
استمرت ميرا في تقليب القنوات حتى توقفت عند عنوانٍ آخر: "قاتلٌ مجنون في العاصمة":

- مسكين راسيل... الجميع يظن أنه القاتل.

- كنت تشكين، والآن أصبحتِ متأكدة؟

تغيرت ملامحها فجأةً، وبدأت بالذعر:

- يا إلهي كيف نسيت!

- نسيتِ ماذا؟

أجابت بسرعة:

- تحقق داني من كاميرات المراقبة، القاتل كان يتحرك في نقاطٍ عمياء، مدركاً تماماً ما يفعله.

- هذا يعني أن راسيل بريء، ولكن أين اختفى؟

- رجُلٌ مريض، لا يدرك أفعاله، لن ينجو من هروبه في الغابة.

- لكنه هرب في المرة الأولى بهذا الشكل!

- لا نعرف من ساعده حينها، ربما ساعده صياد بالصدفة أو سيارة نقلٍ مرت بجانبه.

- ماذا تقصدين؟

بينما كانت ميرا تفكر بصوتٍ عال، سألت كندا بحيرة:

- ماذا يجري هنا؟ لا أفهم شيئاً.

- اتصل بداني سريعاً.

- داني؟ لماذا؟

- فقط اتصل بسرعة...

اتصل بالفعل عليه ليرد بعد دقائق:

- أين أنت أيها الأحمق؟ الجميع متوترون هنا، حتى أن نيل يبحث عنك ولكنه لا يملك رقم هاتفك الجديد.

- أنا عند ميرا، إنها تريد التحدث معك.

أخذت هاتفه بسرعة وكأن القيامة قد حانت:

- داني، ليس لدينا وقت، خذ معك رجال الشرطة بقدر المستطاع، واذهب إلى جبل أتوريا، أن وجدت متطوعين هناك خذهم معك، وابحث عن جثة راسيل في غاباتها.

- ماذا؟ هل جننتِ؟

- القاتل ليس راسيل، حتى الرسائل كُتبت منذ زمنٍ بعيد، ربما استغله القاتل في هروبه الأول، أسرع قدر المستطاع وأخبرني بالنتيجة.

أرتبك داني تحت ضغط ميرا:

- ولكنني لا أستطيع القيام بذلك بدون بلاغٍ رسمي، وموافقة نيل.

- أيها الأحمق، اعتبرني قدمت بلاغاً عن جثة في تلك الغابة، يجب أن تسرع، كان عليّ أن أخبرك في المرآب، ولكنني نسيت.

- حسناً، لديّ عشرة رجال وامرأتان، كيف نبحث؟ وأين نبحث؟ أعطني بعض التفاصيل.

توترت بشدة:

- حسناً... حسناً دعني أُفكر قليلاً، ابحثوا أولاً في سفح الجبل الواقع مباشرةً تحت المشفى من جهة الجبال، وبعيداً عن المنازل السكنية والطريق هناك، وإن فكرت بشيءٍ آخر، سأتصل بك، ولكن أرجوك أسرع.

بعدما أغلقت الهاتف تساءل آدم:

- لماذا ليس في سُفح المشفى نفسها؟ أو على الطريق الرئيسي؟

- لو أخذ الطريق المتعرّج، كان سيُلاحظ من السكان، وإذا أخذ الغابة طريقاً له إلى المدينة، كان سيُلاحظ من القريتين، أو من سكان المدينة، أما الطريق الأخر فهو منحدرٌ بقسوة.

- أتقصدين انزلق من هناك؟

- نعم، ولأنه بعيد عن القريتين زولا وإيتيل والعاصمة، لم يسمع أحد صراخه، أنا متأكدة بأنه في قلب الغابة.

ركض داني مسرعاً إلى مكتب نيل، ليراه يتجادل مع غروم ويوبخه على تصريحاته الغبية، قاطع حديثهم:

- تلقيت بلاغاً بوجود رجُلٍ يشبه راسيل ويركض نحو غابة أتوريا، يجب أن آخذ جميع عناصر الشرطة.

- ماذا تنتظر، أسرع إلى هناك.

قال غروم بأسلوبه المعتاد:

- سأذهب معكم، ربما تحتاجون إلى مساعدتي.

-لا نحتاج إلى الحمقى، للبحث عن المجانين.

مضى داني ورجال الشرطة نحو تلك الغابة الضخمة التي حاوطت جبل أتوريا من كل الجهات، وبعد نصف ساعة، قام الجميع بارتداء ستراتٍ برتقالية اللون وبدؤوا بالسير صوب سفح الغابة الكثيف. انضمّ إليهم متطوعون من تلك المنازل المتاخمة للغابة من جهة المدينة، فقد دفع الإنذارات من سيارات الشرطة العديد من المدنيين للتساؤل عن سبب وجودهم. أخبرهم داني بحاجته إلى متطوعين، وبالفعل تطوعوا معه وتوغلوا في أعماق تلك الغابة الكثيفة.

خمس ساعاتٍ وهم يمشون صوب عمق الغابة المظلم، الساعة كادت أن تصير الرابعة، قال أحد المتطوعين له، رجُلٌ لديه خبرة كبيرة في تلك المنطقة:

- لو ابتعدنا أكثر لن نعود قبل حلول الليل. وفي الظلام الدامس حتى أنا أضيع هنا.

- معك حق، ربما يجدر بنا العودة.

صفر داني لجميع الرجال هناك للعودة، صاح في ذلك الوقت أحد من الفريق "وجدت الجثة"، ركض فوراً صوبه، وتأكد من أن الجثة تعود لراسيل بالفعل.

عاد داني مع المتطوعين إلى موقع الفريق وأمر رجال الشرطة بالبقاء هناك ريثما تعود الطائرة لنقل الجثة والفريق.

سار داني لمدة ساعتين تقريباً حتى عادت شبكة الهاتف، واتصل فوراً بالمركز ليطلب إرسال طائرة وأعطاهم الموقع بدقة، ثم اتصل بآدم، الذي كان ينتظر بفارغ الصبر مع ميرا وقال بصوتٍ متعب:

- وجدنا الجثة، إنها لراسيل، أبلغت المركز لإرسال طائرة إلى هناك، يجب أن تعود أنت وميرا إلى المركز.

عندما سمعت ميرا الخبر، تأثرت بشدة وبدأت بالبكاء، خرج آدم إلى الباب الخارجي ليتحدث مع داني على انفراد:

- إنها متوقفةٌ عن العمل، ألا تعرف؟

- أعلم، ولكن نحن بحاجةٍ إليها، ذلك الأحمق غروم لا يفعل شيئاً سوى التباهي.

- حسناً، سآتي إليك الآن لنقنع نيل معاً.

- سأصل بعد ثلاث ساعات إلى المركز، ما زلت في طريق العودة.

- سأكون في انتظارك هناك.

عاد آدم إلى ميرا التي كانت تبكي بحزنٍ شديد على راسيل، احتضنها برفق وهي تقول بتشنج:

- راسيل... المسكين، كان متهماً وهو ميت، يتألم ويصرخ دون أن يسمعه أحد.

رد آدم بصوتٍ هادئ وهو يمسح على ظهرها لتهدئتها:

- لقد سمعتهِ بالفعل، روحه سترتاح الآن.

استمر بكاؤها حتى استفاقت أُمّها على صوتها، اقتربت بكرسيها المتحرك وبملابسها المعتادة، وقالت بهدوءٍ:

- هل أنت ضائعة يا ابنتي؟

عندما سمعت ميرا كلمة "ابنتي"، ركضت نحوها لتحتضنها بشدة، فلم تسمع تلك الكلمة منذ سنوات طويلة. تركها آدم مع والدتها وأخبرها قبل مغادرته:

- سأخبرك بالتفاصيل لاحقاً.

مضى آدم نحو المركز، وعندما وصل إلى المدخل الرئيسي، فوجئ بحشدٍ جديد من الصحفيين، ليكمل طريقه إلى الباب الخلفي ويدخل. كانت ساحة الاستقبال فارغة، سأل الموظف المتواجد عن الجميع، وأخبره بأنهم ينتظرون الطائرة على السطح. كان الجميع في حالة استنفار كبيرة في انتظار وصول الطائرة، ومن بينهم نيل، الذي يحاول الاتصال بداني باستمرار بدون جدوى.

بعد ساعةٍ كاملة من الانتظار، وصلت الطائرة محملةً بالجثة والفريق، سارع رجال الشرطة بنقل الجثة إلى المشرحة، ونزل غروم معهم، بينما مضى آدم إلى غرفة الانتظار.

بعد ساعة ونصف، وصل داني إلى المركز، تقدم آدم إليه:

- يبدوا أنك مررت بتجربة مُرهقة بالفعل.

بينما كان ينظف ملابسه من آثار الغابة، قال بأسلوبه المعتاد:

- لم أتخيل يوماً أن أبحث عن جثة في تلك الغابة.

- لنسرع إلى نيل.

توجه الاثنان إلى مكتب نيل مجدداً، وصادفوا غروم وأندير يدخلان غرفته، تحدث غروم بثقة:

- توصلت إلى ما يلي، راسيل توفّى بعد يومٍ من هروبه، أي يوم الجمعة، وهو ليس القاتل الذي نبحث عنه.

صُدم نيل من الخبر، بينما كان داني يضحك على وجه آدم، مما أثار غضب نيل:

- لماذا تضحك أيها الأحمق؟

- انظر إلى نظارة آدم، إنها مضحكة.

ضحك داني بشكلٍ متواصل، حتى سكب نيل كأس الماء على رأسه، وصرخ:

- هل جُننت؟

رد داني بجدية:

- ليس بعد، ولكن هذا الأحمق يعتقد نفسه ذكياً.

تعجّب غروم:

- من الأحمق؟

بدأ داني بتقليده بكل سخرية، كان يخرج لسانه ويحرك يديه بشكل غبي جداً يثير السخرية "توصلت إلى ما يلي، أن راسيل ليس قاتلنا الذي نبحث عنه... بلا، بلا، بلا."

توقف داني عن المزاح وأكمل بغضب:

- توقف عن التحدث، وإلا صفعتك أمام رئيسك الآن.

شعر غروم بالإحراج الشديد دون الرد عليه، فهو يعلم أشد المعرفة بأن داني جادٌّ في كلامه، أما نيل، فقد كان مصدوماً بشدة على كل هذه التصرفات التي تحدث أمامه مباشرةً:

- أنتم اليوم كحيوانات هائجة، تبحث عمّن يذبحها دون رحمة، كانت ميرا أولاً ثم أنت؟ لم أعد قادراً على التحمل.

- أنا آسف، ولكن هذا المتعجرف يثير استفزازي، هل سألت نفسك من أخبرني بمكان راسيل؟

تفاجأ نيل مجدداً:

- ماذا تعني؟ تكلم بسرعة!

- لقد أخبرتني ميرا بأن جثة راسيل هناك، حيث خمّنت، وماذا فعلت بدوري؟ كذبت عليك وقلت إن السكان صادفوا راسيل.

- أتقصد...

- نعم، كانت تعلم بأن راسيل جثةٌ ضائعة هناك، فلو أخبرتك أن ميرا أخبرتني لمنعتني من الذهاب.

تدخل آدم بجدية:

- كنت مع ميرا حينما أخبرت داني عن مكان الجثة، وهي تعلم بأن راسيل ليس القاتل من الجريمة الثانية، نحتاج إلى مُحققٍ بارع، ببراعة ميرا وتحليلها المنطقي والذكي.

أكمل داني:

- بالفعل، وليس إلى مُحققٍ يتباهى أمام كاميرات الإعلام، ويصرح بتصريحاتٍ غبية، إذا لم تعد ميرا إلى مكانها الصحيح، ستفشل القضية، أنا آسف، يجب أن أرحل، فأنا متعب.

سار صوب الباب، وقلد غروم بحركاته الساخرة مجدداً "أن راسيل ليس قاتلنا الذي نبحث عنه..." نحن نعلم ذلك أيها الأحمق.

قال نيل بغضب:

- أخرجوا جميعاً من الغرفة ودعوني لوحدي مع آدم.

بعدما خرج الجميع، هدأ نيل قليلاً ثم قال لآدم:

- أحضر ميرا إلى هنا في الصباح، لنعيد إليها مكانتها في التحقيق، ولكن يجب أن تعتذر من ذلك الصحفي أولاً.

- سأفعل ذلك، سيكون من الأفضل أن تتولى ميرا التحقيق بدلاً من غروم، ولكن ماذا عنه؟

- أنت قلتها بنفسك مع داني المزعج، غروم لا يصلح ليتولى هذه القضية.

في اليوم التالي، استيقظ آدم بحماسة وانطلق إلى منزل ميرا، استقبلته بسعادة شديدة، وبعد حديثٍ طويل بينهما، اقترح آدم أن تعتذر من الصحفي في غرفة نيل، فوافقت على العرض، وركب الاثنان السيارة وانطلقا نحو المركز.

حاول آدم الاتصال بداني، ولكنه فوجئ بانقطاع الشبكة تماماً:

- جربي من هاتفكِ.

- لقد كسرت هاتفي، أنسيت؟

حاول آدم تشغيل الراديو، ولكن سرعان ما اكتشف أن الإشارة منقطعةٌ بالكامل، فشعر بشيءٍ غريب:

- أشعر أن هناك خطباً ما... شيءٌ غريب يحدث بالفعل.

- لا تقلق، ربما يكون مجرد عطلٍ تقني على جميع الشبكات.

وصل الاثنان بسيارتهما إلى المركز، ليتفاجأ آدم وميرا بمئات العساكر من قوات الجيش تحيط بالمبنى بشكلٍ كامل، وكأنهم شكلوا حاجزاً بشرياً يمنع أحداً من الاقتراب.

أوقف آدم سيارته ونزل مع ميرا، ليقتربا من مسؤول الحراسة هناك، وسأله عما يجري.

تفقد رئيس الحراس هوياتهما، وتأكد أنهما يعملان في المركز، وأن ميرا هي المُحققة الرئيسة عن الجرائم، قال بلهجةٍ جادة:

- هناك اجتماع لكافة الوزراء في الدولة، وقد تلقينا أمراً مباشراً من وزير الداخلية، بمنع الدخول، وتفريغ الطريق من كافة الصحفيين والعامة.

- ماذا حدث؟ ماذا يجري بالضبط؟

رد الحارس وهو يخفض صوته وكأنما يريد كتمان الخبر:

- لقد قُتِل وزير التجارة، السيد روهان، اليوم في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل.

قال آدم وهو في حالة صدمة:

- ماذا؟ كيف قُتل؟ ومن الذي فعل ذلك؟

- أُحرق رأسه بالكامل، القاتل هو نفسه الذي تبحثون عنه.

"الظلال تخفي كل شيء، لكن الشمس الحارقة تكشف حتى النوايا المدفونة."

جيليان فلين

الجريمة الرابعة – 14 ديسمبر 2004
الساعة التاسعة صباحاً

أسدل الضباب ستائره الثقيلة على العاصمة، كمرآة مشوشة، تعكس وجوهٌ مموهة من الخيال، وكأن الحقيقة نفسها أصبحت سراباً هائماً في أروقته، تتراءى من بعيد كطيف غامض، ويتلاشى كلما اقترب منه أحد.

الصمت كان يلف المدينة، والشوارع الضيقة، التي كانت تشهد يوماً صخب الحياة، بدت خالية، والمباني الشاهقة، بدت أكثر برودةً، والطرقات التي كانت تضج بالحركة والسيارات أصبحت فارغة بشكلٍ مخيف.

اختفى الناس من الشوارع، وزاد انقطاع شبكات الاتصال من حالة القلق المخيم، ليختار السكان البقاء داخل منازلهم، متسمّرين أمام شاشات التلفاز، وعيونهم تُطارد بصيص خبرٍ، قد يكشف عما يجري.

تقدمت ميرا مع آدم نحو بوابة المركز تحت وطأة تعليمات الجنود المختصرة، وعيناها تجولان بترقب، شعرت بثقل الموقف وهي تسير، ورغم هدوئها المعتادة، لم تستطع إخفاء شعورها، بأن هناك شيئاً أكبر، ينتظرها خلف هذه الجدران الصامتة، كأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة.

مع كل خطوةٍ تخطوها، كان صدى حذائها يتردد بوضوحٍ على الأرضية الرخامية للمركز، كأنها تكسر صمت الجنود المنتشرون في الممرّات.

في تلك اللحظة، تصادمت نظراتها مع داني، الذي بدا متوتراً بشدة، بسبب الأوضاع المحيطة، همس لها سريعاً:

- لديهم اجتماع، يجب أن تُسرعي.

وقف آدم إلى جانب داني في الممر، وهي مضت نحو غرفة الاجتماع، توقفت للحظة، واستنشقت نفساً عميقاً كمن يستعد مواجهة عاصفة من الأسئلة والقرارات المصيرية، دفعت الباب ببطء، ودخلت لتجد الجميع جالسين، وقد بدؤوا بالفعل في تبادل نظراتٍ مضطربة.

كان ضوء الصباح الخافت في الغرفة، يعكس وجوه الوزراء والمسؤولين، جميعهم جلسوا حول طاولةٍ ضخمة، والأوراق متناثرةٌ أمامهم.

التوتر كان واضحاً في وجوه الحاضرين، وأصوات أنفاسهم العميقة، امتزجت بخشخشة الأوراق. الجميع يعلم أن هذه القضية ليست قضيةً عادية، بل صراع للسيطرة على أمن العاصمة والدولة.

عندما دخلت ميرا، توقف كل الحضور عن الحركة فجأةً، ارتفعت الرؤوس نحوها، والعيون تتابعها باهتمام، البعض تساءل بصمت، والبعض الآخر كان مشحوناً بالتّرقب.

وزير الداخلية الذي ترأس الطاولة، رجُلاً بملامح صارمةٍ، وعينان تحملان ثقل سنواتٍ من العمل، ألقى نظرة على ميرا، وقبل أن يُنطق بصوتٍ جهوري، وقف نيل متوتراً كطالب أمام أساتذته، وأجاب:

- إنها ميرا، المُحققة التي تولت هذه القضية.

- كنا في انتظارك، اجلسي من فضلك.

استمر الوزير بصوتٍ مهيب:

- الوضع الذي نواجهه الآن هو الأخطر على الإطلاق، مقتل وزير التجارة بهذه الطريقة الوحشية لا يُهدد فقط أمن العاصمة، بل يعصف بكل ما بنيناه في هذه الدولة.

توقف للحظة، والتفت بنظره نحو ميرا:

- ميرا، أنتِ هنا لأنكِ الأفضل في هذا المجال، هذه القضية أصبحت على عاتقكِ الآن، ونحن نعتمد عليكِ لحلها بسرعة.

كانت كلماته مليئة بتوقعاتٍ كبيرة، الحضور لم ينطقوا بكلمة، ولكن نظراتهم نحو ميرا، كانت تتساءل، شعرت بثقل المهمة على عاتقها، ولكنها لم تظهر أيّ تردد.

- أنت تعلمين أن ما نواجهه ليس مجرد قاتلٍ عادي، هذه الجرائم مدروسةٌ بعناية، تُنفذ بدقةٍ مروعة، ربما كانت الجرائم السابقة تمويهاً، والهدف الحقيقي كان وزير التجارة منذ البداية، كلنا هنا نثق بكِ، ولكن الثقة وحدها لا تكفي، لقد بدأنا في اتخاذ إجراءات بالفعل.

بدا الارتباك على ميرا، وقالت بتردد:

- أرجو المعذرة، ولكن لم أفهم... ما هي الإجراءات التي اتخذتموها؟

- سيشرح لك نيل كل شيء، لقد انتهينا هنا، وبإمكانكم البدء على ما اتفقنا عليه.

بينما كان الجميع يغادرون الغرفة ببطء، وقف وزير الداخلية بجانب ميرا وقال:

- سأدعمكِ في كل خطوة وبكل ما تحتاجينه، هذا هو رقمي الشخصي، لا تترددي في الاتصال عند الحاجة.

بعد أن ودع نيل الحاضرين، اتجه إلى غرفته، وتبعته ميرا:

- ماذا كان يقصد؟ هل كان يشير إلى المشكلة الأخيرة؟

- اجلسي، المشكلة مضت بالفعل، لدينا الآن شيء أخر.

- لم أفهم.

- لدينا زائرٌ مهم سيستلم القضية، لقد طلب رسمياً التقدم لحلها، بعدما أصبحت قضيةً دولية.

- زائر! ومن يكون؟

- المُحقق كونار.

تجمّدت في مكانها، وقد علت ملامح الصدمة وجهها:

- كونار! أتمزح معي؟

- ليس لديّ وقتٌ للمزاح، طائرته ستصل غداً في الساعة العاشرة صباحاً، ويجب أن نستقبله بشكلٍ لائق.

- بهذه السرعة؟ كيف حدث ذلك؟ هل كان الاجتماع من أجله؟

- نعم، لقد طلب رسمياً من وزير الداخلية أن يحل القضية بنفسه، والآن، اذهبي إلى منزل الوزير لتفحص مكان الجريمة.

- ولكن...

- ميرا! لقد انتهينا من الحديث.

خرجت ميرا من غرفة نيل، وقد صادفها آدم فوراً:

- ماذا حصل؟ لماذا ترتجفين؟

- أنا بخير، لنذهب إلى منزل الوزير.

بعد انتهاء الاجتماع، تمّ الإعلان عن مؤتمرٍ صحفي عاجلٍ، الصحفيون توافدوا إلى تلك القاعة الضخمة، التي أعدتها وزارة الداخلية، في انتظار التصريحات الرسمية وبث الحدث.

كانت الأجواء متوترة بشدة، ليس فقط للصحفيين وللعاملين هناك، بل للسكان أيضاً، فقد كانوا ينتظرون معرفة ما يحدث في المدينة. عندما ظهر وزير الداخلية، وتحدث أمام الحشود، بدأت أصوات الفلاشات والكاميرات بالانفجار في تلك القاعة "لقد مرت العاصمة بساعاتٍ عصيبة، بسبب جريمةٍ مروعة، وقعت فجر اليوم، تمّ اغتيال وزير التجارة، السيد روهان، بطريقةٍ وحشية، نحن نواجه وضعاً استثنائياً، وتعمل قوات الأمن على قدمٍ وساق للقبض على الجاني".

بينما كان الجميع يستوعبون هول الكلمات، صمت الوزير لثوانٍ معدودة، وتابع حديثه بحزم "القوات الأمنية تعمل على مدار الساعة للقبض على الجاني، وقد أتخذنا كل الإجراءات اللازمة لضمان سلامة العاصمة، أطلب من الجميع الهدوء والتعاون، وسنضمن ألا يظل هذا القاتل حراً طويلاً".

أكمل بتصريحٍ مفاجئ أشعل ضجة "لدينا خبرٌ آخر لطمأنتكم، لقد تلقينا دعماً دولياً غير مسبوق، المُحقق العالمي كونار، الذي حقق إنجازاتٍ ضخمة في مجال التحقيقات الجنائية المعقدة حول العالم، تبرع رسمياً للمساعدة في حل هذه القضية".

كونار كان علماً بارزاً في مجال التحقيق، ويعد من بين القلائل، الذين حازوا على سمعةٍ لا تشوبها شائبة في تعقب القتلة المتسلسلين وفك ألغاز الجرائم الأكثر تعقيداً حول العالم.

سيرته المهنية كانت مليئةٌ بالإنجازات والجوائز، فقد نجح في فك شيفرات الجرائم الغامضة في أكثر من عشر دول، وكشف عصاباتٍ دولية كانت غير مرئية لعقود، وتميز ببراعةٍ استثنائية في تحليل الأدلة وفهمٍ عميق لسلوكيات المُجرمين، ومهاراته في الاستقصاء، قادت إلى إيقاف عدة جرائم قبل أن تقع.

أنهى الوزير المؤتمر، ووضح بأن قطع شبكات الاتصال كان جزءاً من الإجراءات الأمنية لاحتواء الحادث وضمان سير التحقيقات بسريةٍ تامة.

كان المؤتمر يهدف إلى تهدئة مخاوف الناس، ولكن صار العكس، بدأت المدينة بأكملها بالذعر، بسبب المُجرم الطليق، ومقتل الوزير.

بعض الناس هاجروا من العاصمة إلى مُدن مجاورة، والبعض قرروا الهجرة إلى دولٍ أُخرى، خوفاً من أن تندلع حرب دولية بسبب مقتل الوزير، وقدوم كونار كان واضحاً، بأن القضية معقدة وربما تتحول إلى قضية دولية.

عندما انتشرت الأخبار عن تعاون المُحقق العالمي كونار في القضية، تسارعت القنوات التلفزيونية إلى تغطية هذا الحدث التاريخي، الشاشات امتلأت بصوره، ومقاطع من أرشيف إنجازاته السابقة، مع تقارير خاصة، تُسلط الضوء على قدراته الاستثنائية في حل الجرائم المعقدة.

كانت كل قناة تتنافس في تقديم تفاصيل عن تاريخه المهني وحضوره اللافت في الساحة الدولية؛ أحد المذيعين على قناةٍ إخبارية شهيرة، قال بصوتٍ متحمس، "أنه المُحقق الذي لا يعترف بالمستحيل، كونار، الرجل الذي فك طلاسم أخطر الجرائم، حضوره اليوم في هذه القضية يعني أن العدالة ستأخُذ مجراها".

وصلت ميرا وفريقها إلى منزل الوزير، الذي كان أشبه بقصرٍ عصري، بُنيّ ليظهر ثرائه ونفوذه، كان الهيكل الخارجي من الحجر الطبيعي، والواجهة الأمامية الكبيرة، تضم نوافذ زجاجية عملاقة تمتد

على طول الطابقين، يعكس أضواء المساء، وتجعل المكان يتلألأ كما لو كان يشع من الداخل.

كانت الحديقة تضم بركة سباحة كبيرة، وجلسة دائرية، مرتبة بعناية بأثاثٍ فاخر، يتوسطها خشبٌ صناعي، يتنفس منها نار ثابتة، تخرج من أنابيب الغاز، المخبئة في أسفلها.

كانت الممرات الحجرية مضيئة بأضواء صغيرة، وتربط بين مدخل الحديقة والجلسة الدائرية الكبيرة، أما خلف الجلسة، منزلٌ صغير مخصص للضيوف فقط. قال آدم بينما كان يتأمل حديقة المنزل الضخمة:

- أريد أن أفهم، كيف يمكن للوزراء أن يجمعوا هذا المال.

رد أندير بسخرية:

- وزير بدون سرقة أو فساد، كأسدٍ بدون أنياب.

تقدم إليهم رجلٌ في الخمسين يعمل كمشرفٍ هناك:

- أهلاً بكم.

- أنا ميرا وهؤلاء زملائي من قسم التحقيق، نريد أن نُعاين مسرح الجريمة والجثة.

بينما كانا يمشيان إلى الحمام، الذي توفّى فيه الوزير، سألته ميرا:

- ما كان السبب وراء حفلة الأمس؟ ومن كان مدعواً؟

- كانت الحفلة بمناسبة عيد ميلاده الستين، المدعوون كانوا أكثر من خمسين شخصاً، لا أتذكر الجميع، ولكن من الشخصيات المعروفة، كان وزير السياحة، ووزير الاتصالات، ووزير الداخلية، ورئيس مجلس الوزراء.

- لذلك قطع الوزير فوراً جميع الاتصالات.

همس آدم لها:

- ألا تلاحظين أن هذه القضية حساسة جداً؟ كيف سنستجوب الجميع؟

ابتسمت ميرا في وجهه:

- الوزراء لن يلطخوا أياديهم بهذه الجرائم، لو أراد أحدهم قتل الآخر، سيرسل المئات، بل الآلاف لقتله.

دخل الجميع إلى الحمام، الذي كان يقع مباشرةً في الجهة اليمنى من المنزل نفسها، ليشاهدوا الوزير، ببدلته الرسمية، ورأسه المحترق. أعطاها المشرف، رسالة القاتل الرابعة التي كانت في جيب الضحية "الطفلة حلمت، الطفلة هدأت، الطفلة تأملت، وعيناها لمعت"، كانت هذه الرسالة مطبوعةً على ورقة وليست مكتوبة كالمعتاد:

- رسالةٌ مطبوعة؟ أين كانت؟

- في جيب قميصه.

نظر آدم إليها وقال:

- أهذا القاتل واكب تطور العصر، أم أنني أتخيل؟

التفتت إلى المشرف:

- هل هذا الحمام مخصصٌ للجميع؟

- للسيد روهان وحده، الحمامات المخصصة للضيوف في الخارج.

- هل يمكن لأحدٍ ليس مدعواً بدخول الحديقة؟ أو المنزل؟

- كانت المراقبة مشددة، حول سور الحديقة وحده كان هناك أكثر من عشرين رجُلاً، أي من المستحيل أن يتسلل أحدٌ إلى الحديقة.

- أذكر لي أعدادهم ومكانهم لو سمحت.

- على الباب الرئيسي خمسة رجال يتأكدون من بطاقات الدعوة الرسمية، وعلى مدخل المنزل الصغير في الحديقة ثلاثة، وعند هذا الباب أربعة يمنعون دخول الجميع باستثناء عمال المنزل، الذين يعملون لديه منذ عشر سنوات، ونعرفهم جميعاً.

- أخبرني ماذا حدث بالضبط؟

- عند الساعة الثانية والنصف، دخل السيد روهان إلى الحمام، وتغيّب نصف ساعة، بدأ الضيوف بالاستعداد للذهاب، والجميع بدأوا بالسؤال

عنه ليودعوه قبل الرحيل، ثم ذهبت مع أحد الحراس الواقفين أمام الباب، لنتحقق منه، وبعد وصولنا إلى الحمام وطرقنا الباب بشكلٍ مستمر، خُفنا عليه ودخلنا إلى الداخل لنجده بهذا الشكل.

أكد أحد الحراس الواقفين بجانبه كلامه، لتقول ميرا:

- أكمل ماذا فعلت بعدها؟

- لم أكن أعرف ماذا أفعل، صارت هناك ضجة كبيرة واتصلنا بالشرطة، حتى أن جميع المدعوين حضروا ليروا جثته هناك.

- الجميع دخلوا المنزل بعدما قتل؟

- نعم، لم يكن هناك داعٍ لمنعهم.

نظرت إلى السقف المكون من مربعاتٍ من الخشب المزين، صعدت على أحد الحمامات، ورفعت بيدها مربعاً منهم، وأعادته:

- إنها ترتفع بسهولة وتعاد تركيبها بسهولة، القاتل كان مختبئاً هنا طيلة الوقت، فهناك مساحةٌ كافية له.

- أتقصدين...

- نعم، كان ينتظره طوال الليل ليقتله، فهو يعرف أن هذا الحمام مخصصاً للوزير وحده.

- ولكن كيف خرج دون أن نراه؟

- بعد قتله للوزير، خرج من الباب واختبأ في المنزل لنصف ساعة، حتى استنفر الجميع ودخل الحضور إلى هنا، وخرج معهم دون تفتيش أو حتى التأكُد من الهويات الحاضرين، وفي الغالب، حراس الباب الرئيسي لم يتأكدوا من الهويات عند الخروج، صحيح؟

نادى على أحد الحراس الذي كان يتأكد من هوية الحاضرين:

- هل تأكدتم من هوية الراحلين؟

- لا، لم نفعل، وفكرنا بأن هذا التصرف سيُزعج الجميع.

- عرف القاتل ذلك أيضاً، حفلة فيها شخصيات مهمة، من سيوقفهم عند الخروج في هذا الوقت الحرج.

- لنفترض أن ما قلتيه صحيح، أخبرني كيف دخل؟

- هذا السؤال يحتاج إلى إجابةٍ منك، من دخل الأمس هنا؟

- لم يدخل إلى هنا سوى العاملين والطبّاخين، وبعض موظفي شركة كلينف للنظافة.

- كم كان عدد الموظفين من الشركة؟

- أربعة، رجُلان وامرأتان، ولكنهم يُفتِشون دائماً، عند الدخول والخروج، وهم يأتون يومياً لتنظيف المنزل بالكامل.

- هل هناك كاميرات مراقبة داخل المنزل؟

- ليست هناك أيّ كاميرات في المنزل، جميعها في الخارج تصور الحديقة والباب الرئيسي، فلم يسمح السيد روهان بتصوير المنزل من الداخل خوفاً من أيّ اختراق.

أتى أندير واقتطع حديثهم:

- لقد انتهينا هنا، يجب علينا أخذ الجثة إلى المشرحة، فعلى ما يبدو أنه توفّى حوالي الساعة الثالثة، وبنفس الطريقة التي اعتاد القاتل استخدامها.

- حضروا الجثة لتأخذوها.

قال المشرف:

- هناك بروتوكول يجب علينا أخذه بعين الاعتبار.

- لا مشكلة، سأذهب لأتفحص الحديقة الخارجية، ريثما تنتهون.

خرجت ميرا مع آدم إلى الخارج، ليسأل آدم:

- كيف تمكن القاتل من الدخول والخروج دون أن ينتبه إليه أحد؟

- لا أعلم، ولكن يبدو أن هذا ما حدث بالفعل.

دخل الاثنان إلى المنزل الصغير في الحديقة، وفحصاه بالكامل. عاد المشرف إليهم بعد نصف ساعة، وأخذهما إلى غرفة المراقبة، تلك الغرفة الصغيرة التي كانت تحتوي على شاشاتٍ صغيرة تلتقط

مساحات واسعة من الحديقة ومداخلها الرئيسة، مرر إصبعه على أحد الأجهزة وعاد بالتسجيل إلى اليوم السابق، ليركز على العمال من شركة النظافة.

توقفت شاحنة صغيرة بيضاء تحمل شعار الشركة، نزل منها رجلان وامرأتان يرتدون زي الشركة البيضاء ويحملون خلف ظهورهم شعارها، كانت السيدتان تلبسان القفازات، بينما كان الرجُلان يسحبان عربةً فولاذية كبيرة، طولها مئة وعشرون سنتيمتراً، وعرضها حوالي خمسين، ولها أربعة أبواب.

بينما كان يُبطّئ المشاهد، قال المشرف لأحد الرجال باستغراب شديد:

- من هذا العامل الشاب؟

- استقال العامل السابق، لذلك أرسلوا عاملاً جديداً.

قالت ميرا له:

- ما هذه المصادفة، هل تحققتم من هويته؟

- بالتأكيد يا سيدتي، هذا أمرٌ مفروغٌ منه.

تدخل آدم في الحديث:

- هل نعتقله؟

- ليس بعد دعنا نكمل.

نظرت إلى الشاشة مجدداً، وتابع المشرف عمله؛ بعدما سحب العاملان العربة على الممر المخصص لذوي الكراسي النقالة، تقدم إليهم أحد الحراس وفتح الأبواب، وفتشها بشكلٍ روتيني، قالت ميرا على الفور:

- توقف، أنظر هنا، هذا الباب يبدو أنه يحتوي على ستائر، هل تنظفون الستائر يومياً؟

- ننظفها في الشهر مرة واحدة، أعطيناهم الستائر قبل بدء الحفلة، ليغسلوها ويركِّبوها.

- هناك مساحة تكفي لشخصين تحت تلك الستائر الضخمة، ربما اختبئ القاتل هنا.

- ماذا عن العامل الجديد؟

- سنتحقق منه، أرجوا أن يبقى هذا الأمر مكتوماً بيننا، فلو تسرب الخبر، سنقع جميعاً في مشكلة، هل حضرتم قوائم المدعوين، والعاملين هنا؟

ناولها أحد الرجال هناك، قائمتين تحتوي الأولى على أسماء المدعوين، والأُخرى على العاملين هناك:

- شكراً على تعاونكم، وسنخبركم بأيّ معلوماتٍ جديدة حول القضية.

خرجت مع آدم إلى الخارج، وعندما دخلا السيارة، صرخت في وجهه:

- كيف تقول "هل نعتقله" أمامهم؟ أتعلم ماذا سيحدث لو تسرب الخبر؟ سيكون المشتبه الوحيد لدينا، حتى وأن كان بريئاً، سيُسجن.

- أنا آسف، أدركت الموقف متأخراً.

- أنت بنفسك قُلت، أن هذه القضية حساسة جداً، وتتصرف كما لو أنك في فترة تدريب، سأُجاوبك، لن نعتقل العامل، سنُحقق معه في الشركة نفسها.

- ماذا؟

- كما سمعت، دعنا نذهب إلى الشركة الآن.

وصلت ميرا بعد مدة قصيرة إلى شركة كلينف وقبل نزولهما، قالت لآدم أن يتصل بالمركز ويستفسر عن أسماء العمال الأربعة وسجلاتهم الجنائية.

اتصل آدم بالمركز، وأخبروه، بأن ثلاثة منهم سجلاتهم الجنائية خالية، باستثناء بعض المخالفات الصغيرة، وأن العامل الجديد، خرج من السجن منذ مدة، بسبب عملية سرقة قام بها.

دخلت ميرا إلى الشركة لتستقبلها رئيستهم في العمل:

- اهلاً بكم، كيف يمكننا مساعدتكم؟

- أنا ميرا مُحققة من مركز الأمن العام، وهذا زميلي آدم.

- توقعت قدومكم بعد مقتل الوزير.

- أريد أن أسألكِ بعض الأسئلة لو سمحتِ.

- بالطبع.

- أرسلتم في الأمس أربع عمال إلى منزل الوزير، أحدهم كان جديداً في العمل، ما هو السبب؟

- العامل القديم، قدم استقالته بداعي السفر.

- ماذا عن العامل الجديد؟

ارتبكت رئيسة الشركة:

- في الحقيقة، أنا خالته، طلبت مني أختي توظيفه، لأنه كان في السجن، وأنتِ تعلمين، من يدخل السجن ويخرج، لا يوظفه أحد.

- أنتِ تدركين جيداً بأنه المُشتبه الوحيد لدينا.

- صدقيني إنه بريء، فهو بالنهاية مُراهق.

- أين هو الآن؟

- سافر.

- أصدقيني القول، لا تقلقي، لم أخبر أحداً، بأنه المشتبه الوحيد، أنا أعرف إلى أين سيؤول إليه الأمر.

- أخفيناه.

- عند حاجتنا له، هل يمكنني التواصل معكِ؟

- بالطبع، وسأكون الوسيط بينكما.

- حسنا، أريد أن أستفسر عن تلك الخزانة المعدنية.

- إنها في غرفة الغسيل، في الطابق السفلي.

- هل هناك كاميرات مراقبة في المكان؟

- نعم، هناك واحدة فقط، هل ما زلتِ تشكين به؟

- لا.. لا.. أريد أن أتأكد من شيء ما.

ارتاحت السيدة وابتسمت:

- التسجيل موجود على حاسوبي هذا، إنها كاميرا واحدة، شركتنا صغيرة، وليس لدينا ما يُسرق، سوى سوائل التنظيف.

فتحت التسجيل وعكست أتجاه شاشة الحاسوب إليها، لتشاهد مرآب السيارات أمامها، وشاحنة الشركة الصغيرة، أما الخزانة المعدنية، فلم تكن تظهر في التسجيلات، إلا عندما سحبها العامل من غرفة الغسيل بعد وضعه الستائر فيها.

ركزت ميرا على العامل وهو يسحب الخزانة إلى الشاحنة، وفجأةً، انفتح بابها وتحركت الستائر:

- أريد أن أتفحص المكان، ومعرفة روتين العمال اليومي.

- سأرسل معك عاملاً، ليشرح لك كل شيء.

أخذها العامل إلى غرفة الغسيل في الطابق السفلي، التي كانت تقع مباشرةً في موقف السيارات المفتوح على الشارع.

شرح لها العامل، تفاصيل روتينهم اليومي، لتشكره ميرا، وتخرج مع آدم إلى الخارج:

- كان شككِ في محله، هناك أحدٌ تسلل إلى العربة، وأختبأ فيها، ومثلما أخبرنا العامل، بأنهم تغيبوا لفترة ربع ساعة، حتى أحضروا السلم، بينما السيدات بدأن بالتنظيف، في ذلك الوقت خرج القاتل، وأختبأ في الحمام.

- لذلك صرخت عليك، لو اعتقلنا ذلك المراهق، لكان الآن في السجن العسكري، يُعذب، ويُضرب تحت غطاء التحقيق، دعنا من هذا الحديث، لنعد إلى المركز.

- لِمَ لا نذهب لتناول الفطور في أحد المطاعم؟ فقد مللت من أجواء التحقيق.

- قبلت اعتذارك..

ضحك آدم:

- ماذا؟

- لا شيء، أعجبتني الفكرة لنذهب.

توجه الاثنان إلى مطعمٍ قريب، وجلسا على إحدى الطاولات، وبينما كانا ينتظران الطعام، كانت ميرا تنظر إلى الأخبار، التي تتحدث عن قدوم كونار إلى العاصمة، لتتوتر مجدداً:

- هل تعرفين من هو؟

- نعم، أنه مُحققٌ عالمي مشهور.

- لذلك أنت متوترة قليلاً، خوفاً من أن يحل القضية قبلكِ؟

ابتسمت ميرا رغم توترها:

- أنت مُخطئ، ألا تعرف من هو؟ ألم تسمع عنه من قبل؟

- سمعت عنه بالصدفة مرة، ولكني لا أهتم بالمُحققين وأخبارهم.

- ماذا..

- "ماذا أقول لها، إن جاءت تسألني، إن كنت أُحبها؟"

- لم أفهم!

- مقطع من قصيدة، ألم تسمعي بها؟

- كم أنت شقي، ترد عليّ "قبلت اعتذارك"؟ هل أنت آدم حقاً، أم داني؟

ضحك وقال:

- لقد أخذت منه مرض السخرية.

- أتُحب الشِعر؟

- أحب الروايات أكثر.

- روايات؟

- نعم، غريبٌ أمرنا، نعرف بعضنا منذ شهور، ولم نخرج من إطار التحقيق قط، حتى أن هذه أول مرة نتناول الفطور سوياً في أحد المطاعم.

- معك حق، فقد أنهكنا العمل، ربما التعمق في الصداقة يولد حالة حُب، ولست في هذا الموضوع إطلاقاً.

- ألم تُحبي أحداً من قبل؟

- لا يمكن لفتاةٍ أن تعيش بدون حُب، لقد أحببت وتألمت بشدة لفقدانه.

- من أحببتِ؟

- أبي، كان حُبيّ الوحيد وما زال.

- لم تخبريني من قبل عن والدكِ، ولم أكن أود السؤال عنه، ولكني أردت معرفة كل شيء عنك.

- لا أريد التحدث عنه، فذكراه تؤلمني بشدة.

- حسناً، لا عليك، أنا أحترم رغبتكِ في عدم التحدث عنه.

- لم تهتم بي بهذا الشكل؟

استغرب من سؤالها:

- لا أعلم، ولكني أشعر بشيءٍ غريب نحوكِ.

- لا تقل لي أنك مُعجبٌ بي، أرجوك.

- القصة ليست إعجاباً، أشعر بأن عليّ حمايتكِ بشدة.

- من ماذا؟

- لا أعلم، تأكدي لو احتجتِ إلى حماية، سأحميكِ حتى لو كلفني ذلك حياتي بأكملها.

- ولم ستفعل ذلك؟

- ماتت أختي الصغيرة منذ سنة واحدة، ولَم أخبر أحداً عن ذلك، كانت جميلة وطيبة، وتفاصيلها تشبهكِ جداً، أحياناً عندما أرى تصرفاتكِ أقول في نفسي "يا إلهي، لقد خرجت روحُها ودخلت جسدكِ".

- إلى هذه الدرجة؟

- بل أكثر.

- أنا آسفة، كيف توفت؟

- حادثة سير، بعد موتها صار لديّ فجوةٌ كبيرة وفراغٌ شديد، وأنتِ ملأتِ تلك الفجوة، لم أُحب أحداً مثلها، وأنا أعتبركِ في مكانتها، ربما هذا هو السبب الذي خلق ذلك الشعور بداخلي.

عيناها كانتا تلمعان بسبب عاطفة آدم على أُخته، ابتسمت له:

- اعتبرني هي إذن، وأنا سأعتبرك بمثابة أبي.

مزح آدم:

- ألهذه الدرجة تريني كبيراً في العمر؟

- لا بالتأكيد، لدي اعترافٌ لك، تصرفاتك أيضاً تشبه تصرفات أبي، وخصوصاً هدوءك.

- اعتبرني هو، ربما هذا الشيء يقلل ذلك من فراغنا نحن الاثنين.

- تذكر أنك لست أكبر مني إلا ببضع أعوام.

ضحك آدم وقال:

- كما تريدين، ألن تخبريني عن ماضيكِ؟ أريد معرفة كل شيء.

- سأخبرك بكل شيء، ولكن ليس الآن.

- لماذا؟

- حتى أصل إلى نهاية طريقي، وأرتاح قليلاً، لم يبق إلا بضع خطواتٍ وسأصل.

- رغم أنني لم أفهم شيئاً، إلا أنني سأكون في نهاية الطريق كنورٍ لامع يرشدكِ إليه.

- ها قد بدأت حُمّى الروايات بالظهور.

أخذ الاثنان يضحكان باستمرار، ليتغير أجواءهما الكئيبة، فقد كانت ميرا تمازح آدم بسبب هوسه بالقراءة، وهو يلقي بدوره دعابات عن التحقيق عليها.

بعد مدة قصيرة، عادا إلى أجوائهما المعهودة في المركز، التي لم تخلو من التوتر، بسبب قلق نيل.

ناولها أندير تقرير الطبيب الشرعي النهائي، الذي أكد أن وقت الوفاة كان الساعة الثانية وخمسين دقيقة، وبنفس الطريقة المعهودة.

في اليوم التالي، ذهبت ميرا مع آدم، لاستقبال كونار بشكل رسمي. المطار في ذلك اليوم، كان لديه مشهداً استثنائياً، فالأبواب الزجاجية الضخمة، التي عادةً كانت تُفتح وتُغلق بانسيابية مع تدفق المسافرين، بدت وكأنها تتعثر تحت ضغط الحشود الهائلة من الصحفيين والإعلاميين، والمعجبين بعالم الجريمة والتحقيقات الجنائية، الذين توافدوا للحصول على توقيع من كونار عند رؤيته. الضجيج هناك كان يصم الآذان، أصوات الإعلاميين وهم ينادون بأسماء محطاتهم

التلفازية، امتزجت بأصوات المعجبين الذين كانوا يهتفون باسم كونار، وكلما اقترب وقت وصول الطائرة، زاد الحضور تحمُساً.

تدخل عشرات من عناصر الأمن، وانتشروا بزيهم الرسمي، ليشكلوا حاجزاً بشريا أمام الأبواب الزجاجية، وأخذوا يطالبون من الناس بالتراجع، ورغم ذلك، لم يكن من السهل كبح الحماس والانتظار، فكل الأنظار كانت موجهةً نحو لوحة الوصول.

في وسط الفوضى، أعلن عبر مكبرات الصوت عن وصول الطائرة، وتحولت أنظار الجميع نحو الممر المؤدي من الطائرة إلى داخل المطار.

بدا الزمن وكأنه توقف فجأةً، الباب الزجاجي الضخم أنفتح ببطء، وبدأت صورة كونار تظهر أخيراً، ليزداد إثارة الجمهور، ويتدافعوا نحوه بجنون.

تقدمت ميرا وآدم من بين الحشود وسحبوا كونار بعيداً إلى السيارة بمرافقة عناصر الشرطة. ركزت ميرا على تفاصيله في داخل السيارة؛ رجلٌ طويل القامة، ذو جسمٍ رياضي متناسق، يرتدي سترةً بنية، محكمة الأزرار، وقميصاً مخططاً بالأبيض والأسود، ويرتدي نظارةً شمسية سوداء.

كانت ملامحه الحادة، تنبض بالصرامة والجدية، ورغم شخصية ميرا القوية، لم تستطع منع نفسها من الإعجاب به، فحضوره الآسر، وأناقته البسيطة، يصعب تجاهله. بينما كانت تراقب تفاصيله، قال آدم لميرا:

- كيف سنتواصل معه؟

رد كونار بهدوء:

- لا تقلق، أنا أتحدث لُغتك، وحتى لهجتك..

تفاجأت ميرا وعرفت عن نفسها:

- أهلاً بك في العاصمة، أنا ميرا، المُحققة الرئيسية، وهذا زميلي آدم.

أومأ كونار برأسه دون أن يبادلهم الحديث، لتكمل بعد مدة قصيرة:

- سنأخذك إلى الفندق لترتاح قليلاً.

- قُد من فضلك إلى براد الموتى، أريد رؤية الجثث، أنا هنا لأُحقق في القضية، ولست في إجازة.

استغربت ميرا من نبرة كلامه، ليقول آدم:

- حسناً، كما تريد.

بعد نصف ساعة من القيادة الصامتة، وصل الجميع إلى المركز، وتوجهوا مباشرة إلى المشرحة في الطابق السفلي، استقبلهم زاهير بحرارة شديدة، فقد كان معجباً بكونار وذكائه، إلا أنه تفاجأ ببرودة

مشاعره، فقد اكتفى بشكره دون أن يظهر أي إعجاب متبادل. أخرج الطبيب ثلاث جثثٍ مُرقمة بورقة بيضاء على كل باب، أقترب كونار من الجثة الأولى، ووضع نظارته الشمسية في جيب قميصه، وفحصها بدقة، حتى أنه طلب من الطبيب أن يقلبها، وتوجه بعد دقائق إلى الجثة الأخرى، ولاحظ وشماً صغيراً على صدر الضحية من الجهة اليسرى، كان ذلك الوشم يحتوي على ثلاث خطوطٍ مائلة، تُشكل دائرةً غير مكتملة، وفي داخلها خطٌ مستقيم، وعلى أطراف ذلك الخط، خطان آخران مائلان.

أكمل فحصه، وانتقل إلى الجثة الأخيرة، وتأثر بشدة عليها، حتى أن بعض الدموع، قد همرت من عينيه، استغرب زاهير منه، وأشار إلى ميرا وآدم، اللذان كانا يتحدثان عن سلوكه الغريب، تقدمت ميرا نحوه وقالت:

- هل كل شيءٍ بخير؟

مسح دموعه، وعاد إلى شخصيته الباردة:

- الأرقام هنا تشير إلى الجرائم الأربعة، أين رقم واحد؟

ردت ميرا وهي غاضبة، لأنه تجاهلها:

- بما أنك ذكي إلى هذه الدرجة، ألا يخطر على بالك، أن أقرباء الضحية قد دفنوه؟

نظر إليها باستغراب دون أن يرد، وخرج من المشرحة، لحقه آدم وأشار إلى ميرا بالمجيء. رفضت في البداية بسبب غضبها، ولكنها استسلمت في النهاية ولحقت بهم.

عند دخولهم المركز، وجد زينةً باسمه، وجميع موظفي المركز في انتظاره، وكان يترأس هذا الاستقبال نيل، الذي تقدم نحوه وقال "أهلاً بك في المركز" وناوله باقةً من الزهور الطبيعية، ليرفض كونار الباقة بابتسامة وقال:

- هل يمكن أن نذهب إلى غرفة التحقيق؟

رفعت ميرا حاجبيها بشكلٍ ساخر على ذلك الموقف المُحرج، بينما كان الآخرون مذهولين من طبيعته المغرورة، قال نيل بينما كان ينظر في عين كونار:

- ميرا، خُذيه إلى غرفتكِ.

دخل الثلاثة إلى المصعد الكهربائي، وبينما كان آدم يضغط على زر الطابق الخامس، بدأت ميرا بالضحك على تصرفاته، نظر إليها وقال:

- فهمت الآن، لماذا لم تقبضي على ذلك المُجرم.

تحولت ضحكتها إلى انفعال:

- تركت هذه المهمة لشخصٍ غبي ومتكبر مثلك، فلو قبضت عليه، لبكيت مثل طفلٍ صغير كما فعلت منذ قليل.

تدخل آدم:

- ستعملان سوياً، لا داعي لهذه المشاحنات.

ابتسم كونار في وجهها، ليثير استفزازها أكثر، فقد كانت على وشك الانفجار من أسلوبه مع الجميع، لدرجة إنها كانت تريد صفعه بقوة، إلا أن آدم أمسك بيدها.

وصلوا إلى الطابق الخامس، ودخلوا غرفة ميرا، ليتوجه كونار فوراً إلى لوحة الصور، وينظر إلى أماكن الجرائم، أما ميرا فقد جلست على كرسيها المعتاد بغضبٍ مكبوت، وبعد مدة قصيرة، قال كونار:

- من الذي يصور الجرائم لديكم؟

- هل ستتشرح له طريقة التصوير؟

قاطعها آدم:

- أنه مصورٌ شاب يعمل لدينا منذ سنوات، هل اتصل به ليأتي إلى هنا؟

- من فضلك.

اتصل آدم بِسام، ليأتي بعد عدة دقائق، سأله كونار فور دخوله:

- على صدر إحدى الجثث، وشمٌ صغير من الجهة اليسرى، لماذا لم تصوره؟

- لقد صورتها بالفعل ووضعت الصورة على طاولة ميرا.

توترت ميرا قليلاً، وقالت بغضب:

- كيف وضعتها هنا؟ لم أرَ أيّ صورة للوشم هنا، لم أنت مستهترٌ في عملك؟

نظر كونار إلى عينيها بشكلٍ مباشر، كأنه يقرأ توترها:

- لقد صورتها ثلاث مرات و...

قاطعه كونار بهدوء:

- لا عليك، صورها مرة أخرى الآن، وأرسل لي نسخة عبر بريدي الإلكتروني اليوم.

- حسناً.

كتب كونار بريده على ورقة وأعطاها له، وجلس أمام ميرا، وركز في تصرفاتها، فقد كانت متوترةً بشدة:

- يا إلهي، كم هذا الشخص أحمق!

رد كونار، بينما كان يحمل دفتر آدم الذي أعده:

- الأخطاء تحدث دائماً، هل جميع التفاصيل مكتوبةٌ هنا؟

رد آدم وهو شارد في تصرفات ميرا:

- ماذا؟ نعم.

بينما كان كونار يقلب الأوراق، طرق باب غرفتها، ودخل عجوزٌ طويل القامة بشعر ولحية بيضاء، كان يلبس طقماً باللون الأسود والأبيض، ويرتدي في يديه قفازين بيضاوين، قالت ميرا له:

- من أنت؟

- أنا إدمون يا سيدتي، أرسلني الوزير لأكون سائق ومرافق، السيد كونار.

قال كونار له:

- هل أخبرك الوزير بجميع التعليمات؟

- نعم، يا سيدي.

وقف وهو يحمل دفتر آدم:

- سأذهب إلى الفندق، وسأخذ معي دفترك لأقرأ التفاصيل بعناية.

- بكل سرور.

بعدما خرج من الغرفة، دخل سام مجدداً وهو يحمل أربع صور لذلك الوشم:

- هل رحل؟

ردت ميرا بغضب:

- أتمنى ألا أرى وجهه مجدداً، هل صورت الوشم؟

- نعم، سأرسلها إليه عبر البريد.

- أعطني هذه الصور.

أخذت ميرا الصور بقسوة:

- لماذا لم تخبرني عن هذا الوشم أيها الأحمق؟

قال آدم:

- في الحقيقة، وجدتها على مكتبكِ ذلك اليوم.

- ومن سيأخذ صورةً مهمة كهذه من مكتبي؟ أتعلم أن هذه الصور هو الخيط الوحيد الذي يُقربنا من القاتل؟

- ربما رميتها في القمامة بالصدفة.

وصل كونار إلى الفندق الفاخر، الذي سيقيم فيه مع مرافقه إدمون، ودخل غرفته، وتأمل تفاصيلها الفاخرة، التي بدت مملة له.

كانت الأرضيات من الرخام اللامع، والجدران مزينة بألوانٍ هادئة، واللوحات الفنية الراقية تعلو الحوائط، وسريرٌ ملكيّ ضخم في وسط الغرفة، جلس على الأريكة:

- أخبرني يا إدمون، كم رجُلاً يعمل لدينا الآن؟

- خصص الوزير خمسة عشر رجُلاً يعملون بهويات مجهولة لدينا.
- هل يعرفون بعضهم البعض؟
- لا يا سيدي.

في تلك الأثناء وصلت إليه صورة الوشم على بريده الإلكتروني:

- جيد، خذ هاتفي، وأرسل الصور إليهم، ليسألوا جميع محلات الوشوم في البلاد، وخصص لكل رجُل مدينة واحدة، هل فهمت؟
- كنت سأفعل ذلك بالفعل.
- يبدوا أن الوزير وفى بوعده، بأرساله لرجُلٍ ذكي ويفهم علي مثلك.
- شكراً على الإطراء، هذا واجبي.
- إن لم يجدوا شيئاً هنا، أخبرهم بالبحث في البلاد المجاورة، حتى إن اضطروا إلى السفر لمدة طويلة.
- كما تريد يا سيدي.

خرج إدمون من غرفة كونار واتجه إلى غرفته، وبدأ بتوصيل أوامر كونار إلى الرجال، أما هو، فبدأ بتصفح أوراق القضية عدة مرات حتى حفظ جميع التفاصيل، وكأنه القاتل نفسه.

في اليوم التالي، عند الساعة التاسعة صباحاً، اتصل أحد الرجال بإدمون، وأخبره أنه وجد محل الوشوم في مدينة آماريا.

"كل جريمة تحكي قصة، وهي عادةً قصة عن الرغبة، أو الجشع، أو الانتقام"

آغاثا كريستي

الجريمة الخامسة – 16 ديسمبر 2004

الساعة التاسعة صباحاً

صباح آخر، لا جديد سوى ذلك الوشم الغريب، الذي بدا وكأنه خطّ بحبر القدر على جلد الضحية، ليكشف عن خفاياه. وصلت ميرا إلى المركز، وأخذت صورة ذلك الوشم، الذي صار جزءاً اساسياً من ملف القضية، وبدأت مع آدم بالبحث عن محل الذي وشمه ذلك الوشم على جسد الضحية.

مرت على محل الأول للأوشام، لتجده مغلقاً، وأكملت إلى محل الآخر، دخلت من الباب:

- مرحباً، أنا ميرا، مُحققة في الأمن العام، أريد أن أسألك سؤال لو سمحت.

- تفضلي!

ناولته صورة الوشم:

- هل رأيت هذا الوشم من قبل؟

- ما أمركم؟ بالأمس جاءني شخص، وسأل نفس السؤال، وأجبته بالنفي، وتعاودون الكرة اليوم.

تجمّدت ميرا للحظة:

- هذه أول مرة يدخل فيها الأمن العام إلى هذا المحل، هل رأيت هويته؟

- نعم، كانت لديه بطاقةٌ صفراء من وزارة الداخلية، قال إنه يعمل مع مُحققٍ، لا أذكر اسمه.

- كونار!

- نعم..

غادرت ميرا المحل غاضبة، ليقول آدم:

- تمالكي نفسك، لا داعي لكل هذا الغضب.

- هل فقدت عقلك؟ هذا الأحمق يعمل بمفرده دون أخبارنا، يجب أن نتحدث مع نيل فوراً.

عادت إلى المركز، ودخلت غرفة نيل وهي منفعلة:

- ماذا يفعل هذا الأحمق كونار؟

- اهدئي، ما المشكلة؟

- بدأ بالفعل العمل بمفرده دون أن يخبرنا أي شيء، هل جاء ليساعدنا أم ليتولى زمام الأمور؟

- مازلت لا أفهم، ماذا فعل؟

- منذ الأمس وهو يتجول بين محلات الوشم في المدينة ويجري التحقيقات دون إخبارنا، تخيّل عندما دخلنا للمحل، قال صاحبه "كنتم هنا أمس"، ونحن لا ندري شيئاً!

- لا أعلم ماذا أقول، ليس لدي علم بما يفعله، أنا ايضاً لم يعجبني شخصيته ولا تصرفاته الغبية.

- كيف لا تعلم؟ من عيّن له رجالاً ليساعدوه؟ ألم تكن أنت؟

- من أخبركِ بهذا؟

- صاحب المحل، قال إنه رأى بطاقاتهم الصفراء من الوزارة.

- يبدوا أن الوزير يساعده دون أخبارنا.

تدخل آدم بهدوء:

- ولكن يا سيدي، أسمح لي، أين دورنا من كل هذا؟ لماذا تتدخل الوزارة في عملنا؟

- اذهبا الآن، سأتصل بالوزير، وأطلع على ما يجري.

مضت ميرا إلى غرفتها وهي تتقطع من الغضب، تجول المكان، ذهاباً وإياباً، مرت دقائق طويلة، حتى دخل نيل غرفتها بملامح غاضبة:

- أعطاه الوزير كامل الصلاحيات، وعيّن له فريقاً لمساعدته.

صرخت بحنقٍ:

- ماذا يعني هذا؟

- يعني أنكِ ستعملين وحدكِ، دون أن تتدخلي في عمله.

- ماذا؟ أي نُعيد التحقيق في جميع المحلات من جديد، ونحقق في أمرٍ معروفٌ لديه، وكأننا نتسابق للإمساك بالمُجرم!

صرخ نيل في وجهها:

- افعلي ما يحلو لكِ، لا أعلم شيئاً.

- أعطني رقم هاتفه..

- ليس لدي رقم هاتفه، ألا تفهمين؟

احتدّ النقاش بينهما:

- لماذا لم تطلبه من الوزير؟

- لأنه كان يوبخني بالفعل، ولأني عارضت قراره..

قال آدم ليهدئ الأجواء قليلاً:

- ميرا، السيد نيل لا يستطيع فعل شيء، وأنا متأكد إنه حاول بالفعل، هو يدرك أيضاً أن إعطاء صلاحيات كاملة لكونار خطأ فادح.

تنفس نيل ليهدئ من نفسَه:

- أتركِ هذه المهمة لآدم، أبقي هنا حتى ينتهي، لن تشعري بالإحراج هكذا..

- سأذهب إلى فندقه لأتحدث معه.

- يا إلهي، ما أعند المرأة حين تغضب، أفعلي ما يحلو لكِ، أنا ذاهب، لدي أمور أخرى يجب معالجتها.

خرج نيل من غرفتها، وقال آدم:

- سأذهب إلى المحلات وأتحقق من أمر ذلك الوشم.

- وأنا أيضاً سأذهب إلى فندقه، عندما تنتهي، اتصل بي.

انطلق آدم نحو المحلات، وتوجهت ميرا إلى ذلك الفندق المشهور، الذي كان يقيم فيه كونار. دخلت قسم الاستقبال وأظهرت شارتها:

- مرحباً، أنا المُحققة ميرا من الأمن العام، أريد مقابلة السيد كونار من فضلك.

- أهلاً سيدتي، لكنه ليس هنا.

- هل تعلم إلى أين ذهب؟

رد موظف الاستقبال بابتسامة:

- لا نسأل النُزلاء بالعادة هذا السؤال، ولكن لو يفيدك هذا، فهو خرج من السادسة صباحاً ولم يُعد حتى الآن.

- شكراً لك.

خرجت من الفندق وهي متوترة بشدة، وجلست في سيارتها لنصف ساعة، تفكر بما يفعله كونار، ليقاطعها اتصال آدم:

- سألت جميع المحلات ولكن بدون فائدة، أين نلتقي؟

- اذهب إلى مقهى مارلي سأُقابلك هناك..

توجهت ميرا إلى المقهى، وجلست أمام آدم، الذي كان يشرب قهوته بهدوء:

- بما أن كونار لم يصل إلى نتيجة في العاصمة، فعلى الأرجح، سافر إلى المدن المجاورة.

- احتمال وارد..

- أريد أن أطلب منك طلباً غريباً.

- ما هو؟

- أريدك أن تترك كل شيء من يدك، وأن تتفرغ بمراقبة كونار وتحركاته، عندما يعود.

نظر إليها بدهشة:

- تمزحين، صحيح؟

- لا أمزح، هل تستطيع فعل ذلك؟ فأنت الوحيد الذي أثق به.

- ولكن لم ستراقبينه؟

- لدي شعور غريب نحوه، فهو بالتأكيد يخفي شيئاً، وأريد أن أعرف ما هو.

- شيء مثل ماذا؟

- لا أعلم، هل تستطيع أم لا؟

- حسناً، سأُجاريك لنرى إلى أين ستصلين.

وصل كونار في تلك الأثناء إلى مدينة آماريا الصغيرة بعد خمس ساعات من القيادة المتواصلة، كان يتفحص شوارعها، وكأنه يعرفها سابقاً، دخل ذلك المحل الصغير وأعطى صاحبه الصورة:

- مرحباً، قلت لأحد الرجال، أنك من رسم هذا الوشم؟

- اهلاً سيدي، نعم أنا رسمته بهذه الطريقة.

- لمن يكون هذا الوشم؟

- لنوح، الضابط في مركز الشرطة، حتى أن معناه ثلاث طلقات من مُسدسه الشخصي.

ابتسم كونار وودع صاحب المحل، الذي كان لطيفاً معه، ومضي قدماً إلى مركز الشرطة، ليتفاجأ الجميع به، فقد كانت الأخبار تتحدث عنه في كل أرجاء البلاد.

تقدم جايا إليه وحياه بكل حرارة، ومضيا معاً إلى غرفته الشخصية، فلم يصدق أن شخصاً مشهوراً بمكانة كونار سيزور آماريا، وغرفته بالتحديد:

- كيف يمكنني مساعدتك، هل أنت هنا لتزور البلاد؟

- كما تعلم، كُلفت من وزير الداخلية، بتولي قضية القاتل المتسلسل في العاصمة، وقادتني التحقيقات إليك، فأحد الضحايا كان يعمل هنا.

أخرج هاتفه، ووضع على وشم نوح، وقلب هاتف باتجاه جايا:

- هل تعرف هذا الوشم؟

رد مستغرباً:

- هذا وشم نوح، هل أصابه مكروه؟

- للأسف، كان نوح الضحية الثالثة لذلك القاتل، أخبرني، لماذا قرر الانتقال إلى العاصمة، ومتى أنتقل إليها؟

اختفى صوته، وتأثرت نظراته بخبر وفاة نوح:

- لم يتصل بنا منذ رحيله.. يا إلهي، كيف أنتهى به الأمر في يد قاتلٍ متسلسل.

- أرجوك، ركز معي قليلاً.

- أنا آسف، لقد أنتقل منذ عشر أيام إلى العاصمة..

- لماذا قرر الانتقال؟

- كان ذلك حلمه الوحيد، فقد تلقى ظرفاً بريدياً من شركة إيرِتوريا المعروفة في العاصمة، يطلبون منه العمل كمُحقق خفي في الشركة لكشف الفساد.

- هل تعرف شخص اسمه ليام؟

- نعم أعرفه، كان موظفاً في السجل المدني هنا، وأنتقل إلى العاصمة منذ عشرين سنة.

- عشرين سنة؟

- نعم، منذ وفاة ليفار.

- من يكون ليفار؟

سرد جايا قصة المُحقق ليفار بكافة تفاصيلها، والجرائم التي سبقته وتلته.

استمر تحقيق كونار في آماريا لمدة خمسة أيام متواصلة، وعاد في يوم الخامس إلى العاصمة.

كانت أجواء المركز متوترة بشدة خوفاً عليه، حتى أن نيل أمر رجاله، بالبحث عنه في جميع المستشفيات والطرقات خوفاً من إنه قُتِل على يد ذلك القاتل نفسه، فهو لم يخبر أحداً بسفره، حتى الوزير، لم يكن

يعرف تحركاته، دخل المركز والجميع في دهشة لعودته، تواصل مركز الاستقبال فوراً بمكتب نيل، ليصعد إليه ويدخل غرفته:

- أين كنت؟

- كنت في إجازة، أزور بعض المدن السياحية.

- ولماذا لم تخبرنا؟ الجميع كان يبحث عنك بما فيهم الوزير نفسه.

- أنا آسف لم أكن أعلم أنكم ستبحثون عني، في العادة عندما أخرج في إجازة أطفئ هاتفي، هل توصلتم إلى أمر مهم؟

- لا، ولكننا كنا قلقين عليك.

- أكرر اعتذاري مجدداً، سأذهب لأتحدث مع ميرا.

بينما كان يمضي صوب غرفة ميرا، اتصل نيل بالوزير، لإبلاغه بعودته، وصل إلى غرفتها وطرق الباب:

- تفضل!

دخل بابتسامة:

- مرحبا جميعاً.

نظرت ميرا وآدم إليه، وقالت بجدية:

- كم أنت وقح، أبعدتنا عن التحقيق، واختفيت لخمسة أيام، ثم تعود إلى غرفتي بكل سخافة، وتبتسم وتقول "مرحباً"؟

ضحك كونار وكانت هذه أول مرة له:

- أنا آسف حقاً، لم أبعدك عن التحقيق، كل ما في الأمر، سألت بعض المحلات، وأخذت إجازة قصيرة في بعض المدن، التي زرتها.

ردت بسخرية:

- ولنفترض أننا قبضنا على المُجرم؟ أو عرفنا هويته؟

- كانت مُهمتي ستنتهي.

- مُهمتك!

- نعم جئت إلى هنا لحل القضية، وزرت جميع المدن السياحية، وكنت سأعود مسروراً، بالرغم من أنني لم أفعل شيء سوى السياحة.

استغربت من رده:

- لم أنت سعيد إلى هذا الحد؟

- لديكم مدنٌ مذهلة للغاية، سأزورها كلما سنحت لي الفرصة في المستقبل، وبما أنني سعيد، أود دعوتكما أنتِ وآدم، لتناول العشاء في أحد المطاعم.

تبادلت ميرا وآدم تلك النظارات المستغربة:

- أعلم أنني كنت فظاً معكم، وتصرفت معكم بسخافة وغباء، كل ما في الأمر، لقد حدثت معي مشكلة قبل السفر، لذلك أتيتكم بهذا المزاج،

أنا أعتذر بشدة، وأتمنى أن تقبُلا دعوتي للتعويض عن تصرفاتي، وإنشاء صداقة جديدة، يبدوا أن قضيتنا ستطول.

رد آدم ممازحاً:

- من جهتي، قبلت الاعتذار والدعوة معاً.

أما ميرا فقالت بابتسامة مزيفة:

- حسناً، لنلتقي في المساء الساعة السابعة أمام الفندق.

- جيد، أراكم لاحقاً.

بعدما خرج كونار من الغرفة، قالت لآدم:

- لم تنسَ طلبي، صحيح؟

- مازلتِ مُصرّة؟

- بعد اليوم! زاد إصراري.

خرج آدم خلفه، وبدأ بمراقبته؛ لم يغادر كونار الفندق حتى موعد العشاء، اجتمعوا أمام الفندق، ومضوا باتجاه ذلك المطعم الفاخر، وجلسوا على أحد الطاولات هناك.

تقمص كونار أحد الشخصيات المسلية، يلقي بالدعابات عليهم ويضحك، ويبادله آدم كالعادة ويضحك معه، وكأنه كان يلبس قناعاً جاداً، يخفي خلفه شخصيته الأساسية.

كانت ميرا في تلك الأثناء غير مرتاحة رغم تلك الأجواء اللطيفة التي صنعها كونار، وركزت بشدة في تفاصيله، التي تغيرت فجأةً:

- لو عرفناك أنك ستتغير بهذا الشكل، لأرسلناك فورَ وصولك إلى المُدن السياحية.

- حقاً؟ أنا شخصٌ مرح للغاية، وأمزح كثيراً، وسفرتي أعادتني إلى طبيعتي، بعد المشكلة التي مررت بها.

- هل تسمح لي بالسؤال عن هذه المشكلة؟

أخذ لقمة من الطعام اليوناني:

- بالطبع، كانت بسبب موظفة غبية أزعجتني بتصرفاتها الطفولية، لا تهتمي للأمر.

قال آدم بلهفة:

- أخبرنا أين ذهبت وماذا فعلت خلال هذه الأيام؟

- إنها قصة طويلة يا آدم، فالمدن هنا ساحرة، وأجواؤها جميلة، ولكن هناك أمر أزعجني.

- ما هو؟

- الطقس، لو أتيت في الصيف، لكان الوضع أفضل من جميع النواحي، أنا أكره الشتاء ولا أفهم لماذا يحبه البعض.

قالت ميرا وهي مرتاحة:

- أنا أحب الشتاء، فهو فصلي المفضل، الصيف حار جداً، ولا يمكن لأحد الاستمتاع به.

- لكل أحد ذوقه، أخبراني عنكما قليلاً.

قال آدم وهو متشوق:

- ابدأ أنت.

- أنا في الواقع من هنا، من مدينة إنارا القريبة.

تفاجأت ميرا:

- من هنا!

- وكيف أتحدث لغتكم؟

- توقعتُك تعلمتها!

- بل ورثتها عن والدي، وهذا الشيء لا أحد يعرفه سواكما.

- أين هو والدك؟

- فقدت والداي عندما كنت في العاشرة، وتبنتني عائلة، سافرت إليها وبدأت بالدراسة والعمل في مجال التحقيق، وهذه أول مرة أزور بلدتي بعد كل هذه السنوات.

-لماذا لم تُخبر أحداً عن ذلك؟

- لا أريد لأحد، أن يعرف تفاصيل حياتي، ولا أريد أن أكون تابع لدولةٍ معينة.

تساءل آدم:

- كيف فقدتهما؟

- أزمة قلبية.

سألت ميرا:

- لماذا لم تزر مدينتك من قبل؟

- انغمست في العمل، ولم يخطر ببالي أن أعود إلى مدينتي، بعد سماعي بقضية القاتل، قررت أن أزور مدينتي من خلال العمل، لذلك ذهبت في رحلة سياحية قصيرة، ماذا عنكما لم تخبراني شيء لحد الآن.

- أنا آدم، أعزب، أعيش لوحدي مع كُتبي ورواياتي، ليست لدي هوايات سوى القراءة.

قال بإطراء:

- لديك كل هذا الجمال أمامك وما زلت أعزباً؟

خجلت ميرا:

- ميرا هي أُختي، كنت أُحب فتاةً وماتت في الفصل الأخير.

- فصل الأخير؟

- كانت شخصية روائية.

ضحك كونار ونظر إلى ميرا:

- وأنتِ، يا أُخت آدم؟

- ماذا؟

- لم تخبرينا شيئاً عنكِ حتى الآن.

- ليست هناك تفاصيل كثيرة في قصتي، أمي أُصيبت بإعاقة بعد صدمة نفسية، وأنا أعيش معها، ودخلت إلى قسم التحقيق منذ ستة أشهر فقط، ليست لدي هوايات معينة.

- هذا كل شيء؟

- نعم، يخطر في بالي سؤال، هل يمكنني سؤالك عنه؟

- بكل سرور.

- اسمك ليس كونار، صحيح؟

- صحيح، غيرته عائلتي التي تبنتني وبقيت على هذا الاسم.

شعرت ميرا بشيء من راحة بعدما تحدث بصدق:

- ما هو اسمك الحقيقي؟

- لدي ثلاث أصدقاء مقربون، هم وحدهم يعرفون اسمي.

- إذن، أجعلنا خمسة.

- لدي عادة غريبة، عندما أتقرب من أحد وأعتبره صديقاً لي، نلعب لعبة تشبه الصراحة إلى حدٍ كبير، فأنا أعتبر اسمي من الأسرار، وعندما نلعبها، يمكنك السؤال عن اسمي وسأجيبكِ.

قال آدم:

- لم لا نلعبها الآن؟

- لدي أجواء خاصة لهذه اللحظات، استأجرت منزلاً في قرية زولا لرأس السنة، بعيداً عن أجواء المدينة والمفرقعات، وسنخرج نحن الثلاثة معاً، لنقضي ليلة مختلفة ونتعرف إلى بعضنا أكثر، ما هي خُططكم لهذه السنة؟

قال آدم وهو يرفع يده باستسلام:

- أنا لا أستطيع، منذ شهور وأنا أحاول الحصول على إجازة من نيل في رأس السنة، لو علم أني سأكون هنا، سيوبخني بشدة.

- أين ستذهب؟

- سأُسافر.

ضحك كونار وضرب على كتفه:

- عش حياتك يا رجُل، وأنتِ ميرا؟

ـ أنا أيضاً لا أستطيع، سأكون مع والدتي.

ـ سنأخذ والدتكِ معنا لو أردتِ، كما قال إدمون، الأجواء هناك رائعة في كل سنة.

ـ أنا أعلم، ولكن لا أستطيع.

ـ حسناً، مازال هناك عشر أيام، فكري بالأمر جيداً.

مع مرور الأيام، كانت صداقتهم تتعمق شيئاً فشيئاً، وبدؤوا يقتربون من بعضهم بطريقة لم يتوقعها أحد، وكأنهم خيوطٌ هشة، تشابكت مع بضعها في نسيجٍ معقدٍ وجميل.

الأحاديث في البداية، كانت مجرد تبادل للمجاملات السطحية، وبدأت تتطور إلى نقاشات عميقة حول حياتهم، مخاوفهم، وطموحاتهم.

كان لكل منهم جانب خفي، يحمي نفسه من الآخرين، لكنه بدأ يتلاشى ببطء مع الوقت، حتى أن كونار، الذي كان في البداية غامضاً ومنغلِقاً، كشف عن جوانب من حياته، لم يشاركها مع أحد من قبل، تحدث عن أصدقائه الثلاثة المقربين، وعن التحديات التي واجهها في حياته.

ميرا التي كانت تعرف بشخصيتها الجادة والمتحفظة، وجدت في كونار شخصاً متفهماً وواعياً، يقرأ ملامحها الهادئة ويفهم آلامها. بدأ الاثنان يقضيان وقتاً أطول معاً، ليس فقط كمحققين، بل كصديقين

يتشاركان الأفكار والشكوك، أما آدم، الذي كان يميل إلى العُزلة، بدأ يلمس في حديثه مع كونار وميرا، طمأنينة غير مألوفة، وأصبح يقضي ساعات قليلة في قراءة كُتبٍ جديدة، ويشاركها مع كونار، ويتناقش معه حول قضاياها الأدبية، وجوانبها الخفية، التي كانت تفتح له آفاقاً جديدة. خلال التحقيقات اليومية والاجتماعات الرسمية، كانت الابتسامات تتسرب من وجوههم في أوقات غير متوقعة، وبدأت الضحكات الصغيرة تخترق أجوائهم المشحونة.

مع اقتراب رأس السنة، تحولت المدينة إلى عالمٍ آخر، استعداداً للعام الجديد. الشوارع الرئيسية كانت مغطاة بأقواس مضيئة، تتراقص أضواؤها فوق الأبنية العتيقة، وترحب بالمارة وتغمرهم بالبهجة، أما أشجار الصنوبر، التي امتدت على طول الأرصفة، زينت بحبال مضيئة ومتشابكة بشكل فني، وكأن تلك المصابيح الصغيرة، صار جزءاً من ثمارها.

في الميادين العامة، كانت أشجار رأس السنة تقف شامخة، ومكللة بكرات زجاجية متلألئة، تتدلى منها أشرطة ذهبية، ويعلوها تمثالٌ متحرك "السانتا كلوز"، يعلن بيده عن التاريخ الجديد.

الأكشاك الخشبية المنتشرة في الميادين، كانت تبعثر رائحة الكستناء المحمصة في الهواء، كدعوة مفتوحة للقدوم إليها أمام تلك النوافير العامة، التي تراقصت مياهها مع الإضاءة.

بينما كانا آدم وكونار يسيران في تلك الطرقات، ويضحكان طوال الطريق، سأله كونار بجدية:

- هل الأجواء مشابهة في مدينة آماريا؟

- آماريا! لم خطرت على بالك؟

- لأنك من هناك.

تحجر آدم وأرتبك قليلاً:

- و... وكيف عرفت أنني من هناك؟

- عرفت بالمصادفة، لماذا انتقلت؟

أستجمع قوته من جديد:

- لا أريد التحدث عن هذا الموضوع.

- سكان آماريا، غامضون بالفعل، ينتقلون بغموض، يَقتلون ويُقتلون..

- ماذا؟

- لا عليك، ألن تغير رأيك بالقدوم معنا؟

- أجبني أولاً ماذا قصدت؟

- لم أقصد شيئاً، جميع سكان آماريا، يخفون هويتهم، بما فيهم أنت، حتى الضحايا، انتقلوا إلى هنا لأسباب مجهولة.

- هل كنت في آماريا خلال الخمسة أيام، وتُحقق فيها؟

رد مازحاً:

- إلى أين ذهبت بعقلك يا رجُل، كنت في مدينة إنارا، مدينتي، أتعلم لم يتغير شيء فيها، حتى الحجارة بقيت على حالها منذ زمن.

نظر إليه بقلق، ورد مازحاً، ليخفي شكوكه:

- الحجارة كالنساء، لا يتغيرون.

ضحك كونار على اقتباسه:

- جميلٌ أنت يا آدم، عندما تقول اقتباساً. لم تجاوب على سؤالي، ألن تأتي معنا؟

- حبذا لو أستطيع.

- متى ستسافر وتعود؟

- غداً، وسأعود بعد ثلاثة أيام.

- رحلة موفقة.

في صباح اليوم التالي، ودع آدم ميرا وكونار وسافر، أما ميرا فاتفقت مع كندا لترعى أُمِها، وذهبت مع كونار بعدما حل الليل لقضاء رأس السنة في أحد منازل زولا.

بعد وصولهما إلى هناك، تفاجأت ميرا بتفاصيله الجميلة، فقد كانت تلك المنطقة مخصصة للسياح، بسبب إطلالتها على المدينة والغابة.

بدأ كونار بحمل المشروبات إلى مكان قعدتهم وأشعل النار، وتأمل أضواء العاصمة الجميلة.

صارت الساعة حادية عشر، وبقيت ساعة واحدة، ليبدأ السكان بالاحتفال. لحفت ميرا نفسها من شدة البرد، أما كونار فقد تناول مشروباً، وجلس أمامها على جذع شجرة، وتغيرت ملامحه، وكأنه أزال ذلك القناع الذي كان يلبسه طيلة تلك الأيام معهما، استغربت ميرا منه وخافت قليلاً:

ـ لماذا تنظر إليّ هكذا؟

ـ لأنكِ ذكية جداً.

ـ ماذا تقصد؟ أنت تخيفني..

ـ أخفتكِ! قاتلة متسلسلة تحرق رأس الضحايا، تخاف؟

انصدمت ميرا بشدة ووقفت على أقدامها:

- ماذا؟

- أخبريني الآن..

توترت بشدة، وبحثت عن مُسدسها ولكنها لم تجده:

- أنسيتِ أنكِ تركتيه في المركز بعدما ودعنّا آدم!

أكمل وهو يتأمل العاصمة:

- أنا أعرف أنكِ قتلتِ بدافع الانتقام، ولكن لم أفهم، لِمَ هؤلاء بالتحديد، ماذا فعلوا؟

صرخت ميرا في وجهه وتشنجت كامل عضلاتها:

- ماذا تريد الآن؟

- أريد الحقيقة.

- قتلوا أبي.. قتلوه...

جلست وهي منهارة، لم تكن تستطيع التنفس، تذكرت كل ماضيها في لمح البصر، والجرائم التي ارتكبتها، لتفقد الوعي بعد ثواني قليلة. استفاقت بعد ربع ساعة على كرسيها وهي مغطاة بلحافٍ سميك، نظرت إلى كونار وهو واقف على أطراف الجبل ويتأمل العاصمة. حاولت الجلوس، وأحس كونار عليها وأستدار:

- هل أنتِ بخير؟

- لماذا تريد الاطمئنان علي الآن؟

قال ممازحاً:

- لأنكِ صديقتي!

- لست صديقتك، كنت تمثل علينا طيلة تلك الأيام، لتتقرب مني ومن آدم، لماذا لم تُسلمني إلى العدالة التي تؤمن بها؟

- العدالة الحقيقة لا تحكم على المُجرمين فقط، بل تفهم دوافعهم، أريد معرفة الحقيقة يا ميرا، أو نيدا..

- ها أنت ذا، تعرف كل شيء، حتى اسمي الحقيقي..

- جَلبتُكِ إلى هنا، لنتحدث بصدق، كاللعبة التي أخبرتكم عنها ذلك اليوم.

- أخبرني كيف عرفت بأنني القاتلة؟

ضحك كونار، وأخذ رشفة من مشروبه:

- كانت هذه من أسهل القضايا التي مرت علي، فالوشم على صدر الضحية ورميكِ للصور دون إخبار قادني إليكِ، حتى الجثة، في البراد المركز، لم تستطيعي التلاعب بها دون أن يُفضح أمركِ.

- وبدأت بالبحث عن صاحب الوشم حتى وصلت إلى آماريا..

- هذا صحيح، اكتشفت أن الوشم لنوح، وقد تم طلبه من شركة إيرِتوريا ليكون محققاً متخفياً هناك، اتصلت بهم، وأخبرتني صاحبة الشركة أنها طلبت منكِ مُحققاً خاصاً غير معروف في المدينة، وأنتِ بدوركِ استغلتِ الفرصة، لتأتي به إلى هنا وتقتليه.

انهمرت دموع ميرا بينما كان يكمل:

- تساءلت في البداية عن صلتكِ بنوح، سألت عنكِ في السجلات القديمة، وأخبروني أنكِ انتقلتِ إلى هناك بعد سبع عمليات سرقة، وبعد أن استقصيت من العاصمة عبر الهاتف، تبين لي أنكِ أخذتِ إجازة لشهر كامل قبل انتقالكِ، كنتِ تسرقين بطريقة ذكية وتكتبين على الحائط محاولات بائسة، كنت بائسة بالفعل.

شهقت بعمق وقالت:

- كيف عرفت أنني السارقة؟

- من خط يدك، قارنت الخط المكتوب في تقرير آدم مع الخط المكتوب على الجدران، بمساعدة خبير الخطوط، واكتشفت أنها لكِ، فالإجازة الطويلة التي أخذتها قبل انتقالكِ، زادت شكوكي حينها.

أكمل كونار بينما كان يمشي ذهاباً وإياباً:

- أبلغتِ الصحافة عن عمليات السرقة، واستغليت تلك النقطة لتنتقلي. طلبت نقلكِ إلى هناك، وتمت الموافقة فوراً بسبب الحاجة الماسة إلى المحققين بعد سرقة منزل رئيس البلدية.

مسحت دموعها وقالت:

- لم أكن أسرق، أصحاب المنازل الذي سرقتهم، كانوا قد نهبوا حقوق بعض الناس هناك، لذلك أعدت لهم حقوقهم.

- عمليات السرقة، وأخباركِ للصحافة، وإصراركِ على الانتقال لتصلي في النهاية إلى التحقيق في جريمة ليفار، خلقت لدي شكوك. أكملت بحثي في السجلات المدنية واكتشفت أن زوجة ليفار وطفلته انتقلوا إلى العاصمة، وعندما اتصلت بالسجلات المدنية في العاصمة، أخبروني أن اسم طفلته كانت نيدا وغيرته إلى ميرا بعد سنوات طويلة.

اهتزت مشاعرها، وأغرقت خديها بالدموع:

- كنتِ تريدين التحقيق في جريمة قتل والدكِ ليفار، ولو أعلنتِ عن هويتكِ من البداية، كنتِ ستُقتلين حتماً، اكتشفت أن والدك ليفار قد قُتِل بسبب قضية كانت تابعة لتوأمين، وبعد بحثك بتعمق عن القضية، عرفت أن أحدهم زوّر أوراقاً ليعيش باسم أخيه، والذي كان يعمل في

سجلات المدنية في ذلك الوقت والذي اشترك في عملية التزوير كان ليام، ضحيتك الأولى...

جلس أمامها ونظر مباشر في عيناها:

- قتلُكِ لليام كان واضحاً، ولكن لِمَ قتلت الضحية الثانية ونوح ووزير التجارة؟ أريد معرفة الحقيقة كاملة.

- كنت تحقق في آماريا، ونحن صدقناك بأنك في إجازة، كل هذا الوقت وأنت تمثل علينا؟

- لم أكن أمثل عليكِ، بل كنت أدرس شخصيتكِ، واكتشفت أنكِ فتاة لطيفة وجيدة مع أصدقائكِ، ولست تلك القاتلة الدموية، التي تقتل بدافع الشهوة، أخبريني الحقيقة.

شربت الماء وتحدثت، لتبوح كل ما أعتمل في صدرها طيلة العشرين سنة:

- منذ عشرين سنة، أتت سيدة إلى منزلنا، وترجّت أبي بتولي قضية مقتل زوجها، وبالفعل، أستلم والدي القضية، وأكتشف أن قاتله هو نوفل، الذي زوّر موته وأوراقه وغيّر شخصيته إلى أخيه التوأم نيلان، الذي كان مسافراً أيضاً.

- معلومة جديدة.

- تحقق أبي من البصمات، وأكتشف أنها تعود لنوفل، المتوفي في السجلات، وتأكد بعدها أن نيلان هو نوفل الحقيقي، وقبل القبض عليه، قُتِل أبي، وقُتِل نوفل في السجن، ومن شدّة الصدمة أمي أصيبت أمي بالشلل، وانتقلنا إلى العاصمة.

ركزت في ذلك النار المُشتعل وأكملت:

- أمي قضت خمسة عشر عاماً بعيدةً عني، تعيش في مشفى للاحتياجات الخاصة، وأنا وُضعت في ميتم لوريندا وسط العاصمة. في كل الأيام، كانت مشاعر الكره والانتقام تتغلغل في داخلي، تنمو بصمت مع مرور السنين. تمسكت بإصراري على تحمل الحياة بعيداً عنها. اجتهدت في عملي، خضت أياماً قاسية ومُتعبة، تمكنت أخيراً من إخراجها من المستشفى، لتعود إلى حياتها، وتعود إلي.

عُقِدت حاجبيها بقوة، والغضب المكبوت يتوهج في عينيها:

- أمي التي كانت كالجبال، صارت كخشبة هشة قابلة للكسر من أيّ رياح يلمسها. لقد نستني بالكامل، لم تعد تستطيع التميز بين الواقع والخيال، وعدت نفسي أن أنتقم لها ولأبي ولنفسي، تقدمت بطلب لنقلي إلى آماريا لأكثر من خمس مرات ولكنها كانت تُرفض دوماً، أخذت إجازة من العمل لشهر كامل، ورحت إلى آماريا دون أن أعرف ماذا

أفعل، ألتقيت بالصدفة مع امرأة مسنة ومعها أبنتها، أخبرتني قصتها، فهي كانت تعمل كخادمة في أحد المنازل، ولأن الرجل أفلس طردها هي وابنتها دون أي تعويض أو مال، وخطرت لي تلك الفكرة، سرقت بعض ممتلكات المنزل وبعتها في مدينة أخرى وأعطيت كل المال لها ولابنتها، وبدأت بالسؤال عن أناس مثل حالاتها لأكتشف أن هناك الكثير من ذلك النوع؛ الطفل الذي طرده أبيه من المنزل، الرجل المسن الذي كان يعمل طباخاً، كل تلك القصص كانت وراء السرقات، التي قمت بها، اخبرت جريدة آساميا، لتنشر الخبر في كامل البلاد وقدمت الطلب مرة أخرى وقُبلت.

- أكملي..

- بعدما حققت في قضية والدي، تبيّن لي أن ليام كان وراء عملية التزوير، التي سببت بمقتل أبي ولويز. ذهبت إلى منزلي القديم، ووجدت أن هناك رجُلٌ مقيم فيه، وتم قتله أمامي، عدت إلى العاصمة للبحث عن ليام وبعد ستة أشهر بالكامل وجدته، خدرته وسحبت إلى ذلك القبو الذي كان مُجهزاً لتلك الجريمة.

- كيف كان مجهزاً؟ ومن كتب تلك الرسائل على الحائط؟

تأثرت ميرا بشدة وقالت وهي تخنق أنفاسها:

- وجدت راسيل ذات يوم في الشارع، أخذته إلى منزلي واعتنيت به، كان يكتب تلك الكلمات التي أثرت بي بشدة، وكانت تذكريني بأحزاني وطفولتي، فحولت تلك الكلمات إلى أغنية، ليحفظها ويرددها طوال الوقت، استغليت طيبة قلبه..

لم تعد تتحمل، بدأت بالبكاء مجدداً، وأكملت بنحيبٍ مؤلم:

- أخذته إلى جميع الأماكن ورددت عليه تلك الرسائل ليكتبها على الحائط بخط يده، راسيل المسكين... لم يكن يعلم أن تلك الأماكن ستتحول يوماً إلى مسارح دامية لجرائم... لجرائم قتل... بعدما أعدته إلى المشفى، ألفّ من تلك الرسائل أغنية وصار يرددها طوال الوقت وكتبها على حائطه.

تعاطف كونار معها بشدة، أقترب منها وناولها منديلاً وتركها لعدة دقائق، لتكمل بعدها:

- بعدما أحضرت ليام إلى هناك، وبعد تهديده بأبنته، أعترف لي أنه زوّر الأوراق بطلب من إسلان مسؤول الحراسة في سجن آماريا، وأعطاني عنوانه. أحضرته هو الآخر، وبعد تعذيبه بشدة، أعترف أنه كان يعمل لدى نوح وهو من طلب منه أن يُكلف نوفل بالمهمة، ليُبيّض

الأموال عن طريق البنك في الصباح، ويعمل كقاتل مأجور في المساء، واعترف أنه كان وراء قتل نوفل في السجن لكيلا ينفضحوا جميعاً.

عيناها اشتعلتا بوميض مميت وأكملت:

- لذلك حرقت رأسهم، وأخذت جثة إسلان ورميتها في مرمى النفايات، لأخذ القليل من الوقت، وابحث عن طريقة لأحاضر نوح إلى العاصمة، وبالفعل الحظ كان بجانبي دوماً، وكأن القدر يساعدني بكامل قوته.

انصدم كونار من حقدها المدفون، بينما كانت تُكمل:

- اتصلت بي مديرة شركة إيرِتوريا وطلبت مني محققاً خاصاً، ولأني أعرف حلم نوح، أخبرتها عن مكانه لترسل الطلب وتحضره هناك، خدرته هو الآخر وأخذته إلى المرآب، وبعدما أخبرته أنني قتلت إسلان وليام خاف بشدة، وأخبرني بأنه كان يعمل لصالح الوزير روهان في تهريب الممنوعات إلى البلاد، وأن لويز لم يوافق على حصته هذه المرة، لذلك قتلوه.

- أتعني..

- نعم، كان لويز شريكهم، قُتل أبي للتحقيق في الجريمة. نوح قتل ذلك الرجل الذي يسكنُ في منزلي القديم، بسبب الديون المتراكمة عليه، وهو من أعطاه المنزل بمقابل الديون.

- ولماذا قتله؟

- كان يريد إبعادي عن التحقيق في مقتل والدي.

- أكملي.

- لم أتوصل إلى نتيجة واضحة، لذا قررت مراقبة منزل روهان وشركة النظافة التي تعمل فيه، وقبل يوم من الحفلة، لاحظت أن عمال الشركة نقلوا ستائر المنزل. استغليت الفرصة واختبأت بين الستائر النظيفة. عند دخولي إلى المنزل، تسللت إلى الحمام الذي كان يستخدمه وحده. فككت أحد ألواح السقف المعلقة، وتسلقت إليها وبقيت أنتظر قدومه.

اهتزت ملامح كونار بصدمة صامتة، وكأن الحقيقة انغرزت في أعماقه كسكينٍ بارد:

- بعدما هددته بأنني القاتلة المتسلسلة في العاصمة، وبعد ربع ساعة، اعترف لي أن أبي قُتِل عن طريق الخطأ، وأن أحد رجاله قد قتله دون أن يعود إليه، فقتلته هو الآخر ومازلت أبحث عن الرجل الذي قتل والدي، فلم يعترف لي باسمه رغم ضيق الوقت.

بدأ كونار بالبكاء كطفل صغير، لينتزع ذلك القناع اللطيف الذي كان يرتديه طوال الأيام، استغربت ميرا منه وقالت:

- لماذا تبكي؟

- لأنكِ قتلتِ أبي..

نهضت من شدة الصدمة:

- ماذا؟

- روهان كان أبي... وأنتِ قتلتيه لذنبٍ، ارتكبته لوحدي..

أنجرت عيناها وقفزت إليه، وأمسكت برقبة قميصه:

- تكلم! ماذا تقصد؟

أنهار كونار أمامها:

- كنت في الرابعة عشر مع والدي في فندق ماريبيس في آماريا، كان والدي غاضباً بشدة، فقد كان يتابع تحقيقات والدك، وهو عرف بأنه سيصل إليه في النهاية، لم أكن أفهم شيء مما يحدث، سوى أن والدي غاضب من محقق اسمه ليفار، حملت المسدس الخاص به.

توسعت حدقتاها وزادت ضغط يديها وكأنها ستقطع رقبته عن جسده:

- ركضت إلى الشارع وهو كان يلاحُقني ليأخذ مني المسدس، وصلت إلى تلك الساحة وبينما كانوا على وشك القبض على نوفل أمسك والدي بيدي، وأطلقت النار عن طريق الخطأ من المسدس وأصاب رأس والدكِ.

أمسكت برقبته بشدة، وكأنها ستقتله قبل أن ينهي حديثه، ليكمل وهو يختنق:

- حملني حينها...

بدأ كونار بالاختناق، تركت رقبته ليسعل بقوة:

- أخذني إلى الفندق لنسافر في تلك الليلة إلى العاصمة، ووضعني في أول طائرة خوفاً علي وبقيت خارج البلاد إلى الآن.

انهارت ميرا من حديثه وجلست أمامه وهي غير مصدقة. أكمل كونار:

- غيرت اسمي من دانيال إلى كونار، وكنت أرسل المال إلى الأطباء في مشفى والدتكِ ليعتنوا بها، لم أكن أعرف حينذاك، بأن لديه ابنة وحيدة أو لم أسأل، احتملت ذلك الذنب طوال عمري دون قصد، وربما سأحمل ذنباً أخراً. أخرج كونار مُسدسه الشخصي ووضعه في وجهها، دون أن ينظر إليها:

- أنا آسف، ولكني مثلكِ، لن أُسامح من قتل أبي.

خافت ميرا بشدة على حياتها، وقبل أن يُطلق النار عليها بلحظات قليلة، تفاجأت بطلقة نارية تصيب رأسه، نظرت إلى الخلف لترى آدم وفي عيناه نظرات قاسية:

- آدم!

- بندقيته فارغة...

تفحصت ميرا البندقية، كانت فارغة بالفعل، ليقول آدم وهو يتقدم نحوها بهدوء:

- لم أكن أثق بكونار إطلاقاً وبعد مراقبتي له تأكدت من ذلك، فقد أشترى مُسدس منذ أيامٍ فقط، خفت عليكِ بشدة، لذلك أفرغتها اليوم صباحاً دون أن ينتبه، ولحقت بكم إلى هنا واختبأت خلف تلك الأشجار لأسمع حديثكما..

تقدمت ميرا نحوه وحضننته بقوة كبيرة:

- لن تحملي ذنب الجرائم لوحدكِ يا نيدا، سأحملها معكِ، كانت هذه وصية أُمي الوحيدة قبل أن تتوفى.

نظرت إليه وعيناها تلمعان من البكاء:

- ريان؟

- نعم.

بدأ إطلاق الألعاب النارية، جميع السكان كانوا يحتفلون بقدوم رأس السنة، أما الأثنان فكانا يحتضنان بعضهُما بشدة، وكأنهُما أخوةٌ، من أُمٍ واحدة، لتُكمل ميرا أُغنيتها وهي تبكي في حضنه:

- الليلُ يحلمُ، الطِّفلة نامتْ... الفجرُ يشرقُ، الطِّفلة ماتتْ.

الطِّفلةُ تبكي... الطِّفلةُ تبكي... تُنادي، تُناجي.
الطِّفلةُ تُغنّي... الطِّفلةُ تغنّي... صاحتْ، صاحتْ.
حلَّ الليل... حلَّ الليل... عادتْ، نامتْ.
الغيمُ يئنُّ... الغيمُ يئنُّ... يسقي، يسقي.
المطرُ يلمسُ، المطرُ يهمسُ... يرقصُ، يرقصُ.
أحلامٌ صغيرة... أحلامٌ كبيرة... تَهدأ، تَهدأ
نجومٌ مُضيئة... نجومٌ مَليئة... تَلمعُ، تَلمعُ.
الليلُ يحلمُ... الليلُ يحلمُ... الطِّفلةُ نامتْ.
الفجر يشرقُ... الفجر يشرقُ... الطِّفلة ماتتْ.

شقّت ميرا طريقها نحو عالم الجريمة والتحقيق بقسوة وعناد، وحملت بين طيّاتِ روحها أملاً متقداً بأن تصبح مُحققةً مشهورة؛ لمَ يكن حلمها بأن تصبح مُحققة مجرّد خيال، بل كانت معركة ضد واقعٍ لا يرحم، في بيئةٍ تفتقر إلى التقدير والإمكانات، وفي مجتمعٍ لا يرى في النساء سوى حدودٍ ضيقةٍ ومرسومةٍ بدقة. كانت قصص الغموضِ والجريمة تسكنُ خيالها كظلالٍ لا تفارقها؛ تقضي ساعاتٍ طويلة وهي تبحر بينَ صفحات الكتب البوليسيّة، وتبتلع أوراقها بشغف، وتفكك جرائمها قبل أن تصل الحبكة إلى ذروتها.

ISBN 978-9933-683-46-7

9 789933 683467

MEZOPOTAMIA
Publishing House